الكتاب المقدس و السيف

انجلترا و فلسطين من العصر البرونزى إلى بلفور

الجزء الأول



باربارا توخمان

تعريب. د. منى عثمان

محمد طه

مكتبة الشروق الدولية

لكتاب المقدس والسيف

انجلترا وفلسطين من العصر البرونزى إلى بلفور

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م



شارع الفتح - أبراج عثمان أمام المريلاند - روكسي القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: shoroukintl@hotmail.com

shoroukintl@yahoo.com

باربارا توخمان

الكتاب المقدس والسيف

انجلترا وفلسطين من العصر البرونزي إلى بلفور

الجزء الأول

من العصر البرونزى إلى انجلترا البيوريتانية
والأمل فى إسرائيل

تعريب: د. منى عثمان
محمد طه



مقدمة

الكتاب المقدس والسيف

هذا هو عنوان الكتاب الإنجليزى «Bible and Sowrd» الذى كتبته باربارا توخمان، وطبع ثلاث طبعات: الأولى عام ١٩٥٦م لدار نشر جامعة نيويورك، والثالثة والأخيرة عام ٢٠٠١م لدار نشر فونيكس بريس، ويباع بسعر ١٢,٩٩ جنيه استرلينى، أى ما يقرب من مائة وخمسين جنيهًا مصريًا.

● يتكون الكتاب المقدس من العهد القديم، الذى يؤمن به اليهود والمسيحيون، والعهد الجديد، ويؤمن به المسيحيون فقط.

وبالنسبة للمسلمين، فهم يؤمنون بالكتاب المقدس، ولكن يرون أنه طاله بعض التغيير من التدخل البشرى فى كتابته وحفظه، وترجمة ما ترجم منه، سواء بالحذف أو بالإضافة، وبمثل هذا يقول الكثير من علماء لاهوت الكتاب المقدس، الآن، ومن قرن أو أكثر.

العهد الجديد، والذى يتكون من أناجيل: متى، مرقس، لوقا، يوحنا، ثم أعمال الرسل، ثم الرسائل، وأخيراً رؤيا يوحنا، وهى

كما فى الكتاب المقدس طبعة الحياة : «الرؤيا كتاب إعلان الله ليوحنا فى أواخر القرن الأول» .

دعوة المسيح ، كما يفهمها كل من يقرأ الأناجيل دعوة للسلام ، وللحب والتسامح ، والزهد فى الدنيا ، واجتناب الماديات . . . وللمسيح أقوال ووصايا مشهورة وحكم خالدة مثل :

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ـ للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد ـ . . . أما أنا فأقول لكم كل من ينظر إلى امرأة بقصد أن يشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، فإن كانت عينك اليمنى فخًا لك ، فاقلعها وارمها عنك ـ من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الخد الآخر ـ كونوا كاملين كما أن أباكم السماوى هو كامل ـ عندما تتصدق على أحد فلا تدع يدك اليسرى تعرف ما تفعله اليمنى ـ ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟

أسهل أن يدخل الجمل فى ثقب إبرة من أن يدخل الغنى ملكوت الله ـ أحب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل فكرك ، هذه هى الوصية العظمى الأولى ، والثانية مثلها : أحب قريبك كنفسك ، بهاتين الوصيتين تتعلق الشريعة وكتب الأنبياء ـ رد سيفك إلى غمده ، فإن الذين يلجأون إلى السيف بالسيف يهلكون(*) ـ مملكتى ليست من هذا العالم .

وفى موعظته الأشهر على الجبل ، قال :

(*) قال المسيح ﷺ ذلك عندما حاول أحد حوارييه أن يدافع عنه ضد الذين أرسلهم رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب للقبض عليه .

طوبى للمساكين بالروح، فإن لهم ملكوت السماوات. طوبى للحزانى، فإنهم سيعزون. طوبى للودعاء، فإنهم سيرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر، فإنهم سيشبعون. طوبى للرحماء، فإنهم سيرحمون. طوبى للأنقياء القلب، فإنهم سيرون الله. طوبى لصانعي السلام، فإنهم سيدعون «أبناء الله». طوبى للمضطهدين من أجل البر، فإن لهم ملكوت السماوات. طوبى لكم متى أهانكم الناس واضطهدوكم، وقالوا فيكم من أجلي كل سوء كاذبين. افرحوا وتهللوا، فإن مكافأتكم في السماوات عظيمة. فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم!

فما أصفى وأنقى وأسمى هذا الحديث، ومن يقرأ الحديث النبوى الشريف، سيرى أنه وحديث المسيح عليه السلام يخرجان من نفس النبع الربانى.

● فما الذى أقحم السيف على العهد الجديد؟

يمكن مناقشة هذا التساؤل من عدة أوجه:

●● أولاً: «الكتاب المقدس-Bible» يشمل العهد القديم، وهو توراة موسى عليه السلام، وما يليها من أسفار حتى سفر ملاخى، وإجمالى عددها ٣٩ سفراً.

وفي العهد القديم سوف تقرأ آيات كثيرة مثلما يأتى:

لأنكم شعب مقدس للرب إلهكم . . . **وتستأصلون جميع الشعوب** الذين يسلمهم الرب إليكم فلا تشفقوا عليهم ولا تعبدوا آلهتهم؛ لأن ذلك شرك لكم ـ سفر التثنية، الإصحاح ٧ : ٦ ـ ١٤ .

تطهير المحاربين وقتل النساء الأسيرات

فخرج موسى وألعازار وكل قادة إسرائيل لاستقبالهم إلى خارج المخيم، فأبدى موسى سخطه على قادة الجيش من رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من الحرب، وقال لهم : «لماذا استحييتم النساء؟ إنهن باتباعهن نصيحة بلعام أغوين بنى إسرائيل لعبادة فغور، وكن سبب خيانة للرب، فتفشى الوباء فى جماعة الرب . **فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلوا أيضًا كل امرأة ضاجعت رجلاً، ولكن استحيوا لكم كل عذراء لم تضاجع رجلاً** . . . وأما أنتم فامكثوا خارج المخيم سبعة أيام ثم اغسلوا ثيابكم فى اليوم السابع فتكونوا طاهرين» ـ سفر العدد، الإصحاح ٣١ : ١٣ ـ ٢٤ .

شرائع حصار وفتح المدن البعيدة

وحين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أولاً . فإن أجابتكم إلى الصلح واستسلمت لكم، فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيداً لكم . وإن أبت الصلح وحاربتكم فحاصروها، فإذا أسقطها الرب إلهكم فى أيديكم، **فاقتلوا جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما فى المدينة من أسلاب، فاغنموها**

لأنفسكم، وتمتعوا بغنائم أعدائكم التى وهبها الرب إلهكم لكم. هكذا تفعلون بكل المدن النائية عنكم التى ليست من مدن الأمم القاطنة هنا ـ سفر التثنية، الإصحاح ٢٠ : ١٠ ـ ١٥.

شرائع حصار وفتح مدن أرض الموعد

أما مدن الشعوب التى يهبها الرب إلهكم لكم **ميراثًا فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها**، كمدن الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، كما أمركم الرب إلهكم؛ لكى لا يعلموكم رجاساتهم التى مارسوها فى عبادة آلهتهم، فتغووا وراءهم وتخطئوا إلى الرب إلهكم ـ سفر التثنية، الإصحاح ٢٠ : ١٦ ـ ١٨.

سقوط أريحا

وعندما نفخ الكهنة فى الأبواق فى المرة السابعة قال يشوع للشعب: «اهتفوا؛ لأن الرب قد وهبكم المدينة. **واجعلوا المدينة وكل ما فيها محرمًا للرب(*)، باستثناء راحاب الزانية وكل من لاذ بيتها فاستحيوهم**؛ لأنها خبأت الجاسوسين المرسلين لاستطلاع أحوال المدينة». فاندفع الشعب نحو المدينة كل إلى وجهته، واستولوا عليها **ودمروا المدينة وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير ـ سفر يشوع، الإصحاح ٦: ١٦ ـ ٢١.**

(*) أى اقتلوا ـ بأمر الرب ـ كل من فيها.

كذلك ففى رؤيا يوحنا، وهى آخر العهد الجديد، وهى طبقًا للمقدمة التى جاءت فى كتاب الحياة:

الرؤيا

«الرؤيا كتاب إعلان الله ليوحنا فى أواخر القرن الأول، فى جزيرة بطمس التى كان قد نفى إليها فى أثناء الاضطهاد الشديد على الكنيسة. وهى موجهة أصلاً إلى الجماعات المسيحية فى آسيا الصغرى؛ لتشديد عزيمتهم وحضهم على الثبات فى المسيح رغم المحن.

يطالعنا الكاتب بمشهد باهر يظهر فيه المسيح ابن الإنسان ممجدًا، ثم يدون الرسائل التى أمره بإبلاغها إلى الكنائس السبع. وبعد ذلك تتوالى الإعلانات المتعلقة بما سيحدث فى آخر الزمان من ضَيْقَات وبلايا وأحداث رهيبة، **وحروب تنتهى بهزيمة إبليس وجنده وتطهير الأرض من الأشرار؛ ليملك المسيح مدة ألف سنة**. ثم ينهى الكاتب رؤياه بوصف قيامة الأشرار للدينونة أمام العرش العظيم الأبيض فى اليوم الأخير، وينتهى إلى وصف الحالة الأبدية حيث يتم النصر لله وللمسيح فى السماء الجديدة والأرض الجديدة، إذ يتحقق الخلاص النهائى للمؤمنين».

تقع الرؤيا فى أكثر من عشرين صفحة، أولها كما يلى:

«هذه رؤيا أعطاها الله ليسوع المسيح؛ ليكشف لعبيده عن أمور لا بد أن تحدث عن قريب. وأعلنها المسيح لعبده يوحنا عن طريق ملاك أرسله لذلك. وقد شهد يوحنا بكلمة الله وبشهادة يسوع المسيح،

بجميع الأمور التى رآها . طوبى للذى يقرأ كتاب النبوءة هذا وللذين يسمعونه، فيراعون ما جاء فيه ؛ لأن موعد إتمام النبوءة قد اقترب!» .

تكشف الرؤيا عن الغيب، وما يحدث آخر الزمان حتى المجيء الثاني للمسيح، ليحكم ألف سنة .

والرؤيا متعددة الرموز، بها كثير من التجليات الإلهية، الملائكة، والشيوخ، والحيوانات المعروفة وحيوانات الحدث الجلل التى لم يعرفها البشر، وبالطبع، ككل النصوص المقدسة، بل وغير المقدسة أيضًا، يمكن للتأويل أن يأخذ مكانه وفرصته، فهناك من يراها رمزية، وهناك من يراها رؤيا حرفية واجبة الوقوع، وعلى المؤمنين (المسيحيين) أن يعملوا ما فى وسعهم لتحقيقها، وإن استلزم ذلك سفك الدماء :

فديست المعصرة (معصرة غضب الله العظمى) بالأرجل خارج المدينة، فانبثق منها الدم وجرى أنهارًا حتى إلى لجم الخيل (بارتفاع لجام الخيل) مسافة ألف وستمائة غلوة (٣٠٠ كيلومتر)(*) ـ الإصحاح ١٤ : ٢٠ .

ثم تقرأ فى آية عن ١٤٤٠٠٠ من اليهود مختومين حتى يحميهم الله من أضرار ذلك اليوم، ١٢٠٠٠ من كل قبيلة، أو سبط من أسباط يعقوب عليه السلام ، بينما تلحق الأضرار ـ بسبب غضب الله ـ بقية البشر .

ويجيء ذكر بابل الزانية عدة مرات فى الرؤيا، على أنها أعظم

(*) لمن يأخذ النصوص بحرفيتها، مثل الأصوليين البروتستانت، يعنى ارتفاع الدماء إلى لجام الخيل، وعلى مسافة ٣٠٠ كيلومتر، ضحايا بمئات الملايين من البشر .

مـدن الأرض وأكثـرها شـراً وسـوءاً، والزنا تمثيل للكفـر «وضـلال الشـعوب عن عـبادة الله»، وتقـرأ عن حرب السـمـاء بين مـيخـائيل ومـلائكته ضـد التنين ومـلائكتـه، ويتكرر الكلام عن بابل : سقطت بابل العظمى التى سقت أمم العـالم من خـمر زناها الجـالبة للغـضب ـ بابل الزانية الكبرى ـ سقوط بابل .

ثم تجد فى الآية ١٦ من الإصحاح ١٦ :

وجمعت الأرواح الشيطانية جيوش العالم كلها فى مكان يسمى بالعبرية هرمجدون .

تعتقد نسبة كبيرة من المسيحيين البـروتستانت بحرفية ذلك (الأصوليون)، ويعتقدون أنه حتى يجىء المسيح الثانى، فلا بد من قيام معركة هرمجدون، بين المسيحيين واليهود، وبقية أشرار العالم .

قد يكون هؤلاء الأشرار هم الشيوعيين والاتحاد السوفييتى (وقد قيل ذلك)، وقد يكونون يأجوج ومأجوج، أى الهنود والصينيين، وقد يكونون المسلمين، وقد يكونون العرب (وقد قيل ذلك)، وقد يكونون تحالفًا بين تلك الشعوب الشريرة .

بالطبع هذا يخضع لمن يأول، وما الذى يريده بالتأويل .

وقـد يندهش القـارئ ـ أو لا يندهش ـ عندمـا يعلم أن الاقـتناع بضرورة عودة إسرائيل (اليهود) إلى أورشليم وإقامة دولة إسرائيل؛ لكى يجىء المسيح، طبقًا لنبوءات الكتاب المقدس (العـهد القـديم والعـهـد الجـديد)، تجـاوز علمـاء اللاهوت، والأصـوليـين من

البروتستانت، إلى نسبة عالية من المسيحيين الملتزمين، من ضمنهم مفكرون، وسياسيون، بل وزراء ورؤساء دولة فى كل من انجلترا والولايات المتحدة، وبالطبع فى دول أخرى فى العالم المسيحى.

ونقترح على القارئ الذى يريد مزيداً من التفصيل عن ذلك أن يرجع للعمل المهم والمتقن للكاتب الليبرالى رضا هلال (أعاده الله سالماً، أو رحمه وغفر له) «المسيح اليهودى ونهاية العالم» - الطبعة الثالثة من منشورات مكتبة الشروق الدولية، وكتاب «أرض الميعاد والدولة الصليبية» البروفيسور والتر أ. مكدوجال، وترجمة رضا هلال - الطبعة الثانية من منشورات دار الشروق.

●● ثانيًا: . . . تقول الكاتبة فى مقدمتها عن الكتاب، **إنها استلهمت هذا الكتاب من قيام دولة إسرائيل التى تشتت حوالى ٢٠٠٠ سنة، برغم أن شعبها هو الذى أعطى العالم الغربى التوحيد، وقيمه الأخلاقية التى يعيش عليها، وأعطاه مؤسس ديانته السائدة (المسيح اليهودى)، ومع هذا قاسى ذلك الشعب (إسرائيل) من الاضطهاد والقمع والمذابح . . . وعاش بلا دولة.**

وفى الحقيقة، ساد فى الغرب من القرن العشرين - وخاصة منتصفه - أن حضارة الغرب قائمة على أسس يهودية مسيحية، ويندر أن يقول أحد من المفكرين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع بأن تلك الحضارة قائمة على أسس مسيحية فقط، وإن فعلها أحدهم، فلن يسلم من الهجوم عليه لذلك القول، وغالبًا ما سيضطر للتراجع والاعتذار عن فعله.

وتلك المقولة، على الرغم من أنها أصبحت من المسلمات، كالبديهيات، لا تعلو عن النقد الموضوعى.

● فالمصدر الأساسى للقيم الروحية والأخلاقية هو الكتب المقدسة عند اليهود وعند المسيحيين وعند المسلمين... وفيها عبر ووصايا وأحكام من الأنبياء والتاريخ.

يؤمن التيار الرئيسى - والتقليدى فى الوقت نفسه - من اليهود، بأن كتابهم هو الكتاب السماوى الوحيد، وآخر أنبيائهم ملاخى. وهم فى انتظار الهبوط الأول للمسيح عليه السلام.

وبالتالى فهم لا يعترفون بالمسيح عيسى ابن مريم، ولا بميلاده الإعجازى، ولا بالأناجيل المسيحية.

وكذلك فهم لا يعترفون بمحمد صلى الله عليه وسلم كنبى، ولا بالقرآن.

وبالطبع فهم يعتبرون أنهم شعب الله المختار، وبأرض الميعاد التى وهبها الله لهم (*).

ويؤمن التيار الرئيسى - والتقليدى فى الوقت نفسه - من المسيحيين بالعهد القديم، وبأنبيائه، ولكن اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية أنها

(*) لا ينحصر ذلك فى الجناح المحافظ، أو اليمين المتشدد، بل فى الغالبية العظمى من اليهود. وقد يتذكر القارئ اللقاء التليفزيونى الذى جمع عمرو موسى وشلومو بن عامى وزير خارجية إسرائيل السابق لحزب العمل، حين قال: القدس عاصمة إسرائيل منذ آلاف السنين، فأجابه عمرو موسى قائلاً: عمر دولة إسرائيل خمسون سنة فقط، فكان رده: العالم كله يعرف ذلك، فالكتاب المقدس يقول ذلك.

أصبحت المختارة من الرب بدلاً من بنى إسرائيل، ثم جاء البروتستانت، واعتبروا أنهم الشعب المختار من بين المسيحيين.

ولا يعترف التيار الرئيسى والتقليدى من المسيحيين، بمحمد ﷺ كنبى، ولا بالقرآن ككتاب سماوى.

أما التيار الرئيسى والتقليدى بين المسلمين، فهو يؤمن بالكتب الثلاثة، ويقول عن الكتاب المقدس إنه كتاب سماوى، ولكن شابه التغيير بالحذف وبالإضافة لأسباب عدة، كذلك يؤمن المسلمون بكل الأنبياء الذين جاءوا فى القرآن(*)، ومنهم عيسى عليه السلام، وأن ميلاده إعجازى بدون أب، إذ حملت به أمه مريم البتول العذراء، عليها السلام، ولكنه فى النهاية عبد الله، وإن كان أفضل عباد الله قدراً، كما يقولون على محمد ﷺ خاتم النبيين، عبد الله، وإن كان أفضل عباد الله، كبقية إخوته من الأنبياء(**)، عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

- يُعتبر داود عليه السلام الرمز الأهم والنموذج الأمثل عند اليهود.

فلنحاول أن نأخذ من حياة داود عليه السلام - كما جاءت فى العهد القديم - القيم التى أسست الحضارة اليهودية، ومن ثم الحضارة

(*) وبأن هناك أنبياء آخرين، غير مذكورين فى القرآن.

(**) فى القرآن ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وفى الحديث الصحيح: «لا تخيرونى عن الأنبياء».

اليهودية المسيحية، طبقًا لأقوال المفكرين والعلماء والمؤرخين فى الغرب.

بدأ ظهور داود فى سفر صموئيل الأول، بأن الملك شاول هاجمه روح ردىء، فطلب من خدامه أن يبحثوا له عن رجل ماهر فى العزف، فأحضروا له الفتى داود عليه السلام الذى كان يرعى الغنم.

بعد ذلك أنقذ داود عليه السلام بنى إسرائيل فى حربهم ضد الفلسطينيين، بأن صرع - وهو ما زال غلامًا - العملاق الفلسطينى جليات، ففر الفلسطينيون مهزومين.

ثم عرض الملك شاول على داود أن يزوجه ابنته، وطلب مهراً لذلك مائة غلفة من غلف الفلسطينيين، فلم يتوان داود عن ذلك (النص فى سفر صموئيل: فراقه الأمر)، فأسرع بقتل مائتين من الفلسطينيين، وقطع أعضاء ذكورتهم، وأخذ المائتى غلفة مهراً لزواجه من ابنة الملك، وتزوجها - سفر صموئيل الأول، الإصحاح ١٨ : ٢٠ - ٢٨.

انقلب الملك على داود، الذى فر منه. ثم حارب داود الفلسطينيين فى قعيلة واستولى على مواشيهم وهزمهم هزيمة منكرة. . واستمر الملك شاول فى تعقب داود لقتله، واستمر داود فى الهرب، وسنحت لداود فرصة أو فرصتان لقتل شاول ولكنه امتنع. ثم تزوج داود للمرة الثانية من أبيجايل زوجة الثرى نابال الذى رفض أن يهب داود شيئًا من ثروته، ثم تزوج داود للمرة الثالثة من أخينوعم.

ثم لجأ داود إلى الفلسطينيين ؛ ليحموه من ملك إسرائيل شاول :

«وقال داود لأخيش ملك جت : إن كنت قد حظيت برضاك ، فليتم تحديد قرية لى فى الريف أقيم فيها . لماذا يقيم عبدك فى عاصمة الملك معك؟

فوهبه أخيش صقلع . لذلك صارت ملكًا لملوك يهوذا منذ ذلك الحين . وأقام داود فى بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر» ـ سفر صموئيل الأول ، الإصحاح ٢٧ : ٥ ـ ٧ .

ثم يجيء بعد ذلك مباشرة فى السفر عنوان :

غزوات داود

وانطلق داود ورجاله يشنون الغارات على الجشوريين والجرزيين والعمالقة . **وهاجم داود سكان الأرض فلم يستبق نفسًا واحدة ، واستولى على الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب . . . ولم يكن داود يستبقى رجلاً أو امرأة على قيد الحياة .**

يمضى السفر فى القصص عن غزوات داود ، إلى أن يأتى قتال الفلسطينيين ضد إسرائيل ، فيطلب داود من أخيش أن ينضم معه لقتالهم ، ويقول له : «سترى بعينيك ما يصنع عبدك فى الحرب» ـ سفر صموئيل الأول ٢٨ : ٢ ، ولكن الفلسطينيين لا يثقون فى داود فيطلبون من ملكهم أن يصرفه «فاستدعى أخيش داود وقال له : أقسم

لك بالرب الحى إنك مستقيم . . غير أن قادة جيشى ساخطون عليك ، فامض الآن بسلام . . . فقال داود : ماذا جنيت ، وأى علة وجدت فى عبدك منذ أن مثلت أمامك إلى اليوم حتى لا أشترك فى محاربة أعداء سيدى الملك؟» ـ ٢٩ : ٦ ـ ٨

ثم يموت الملك شاول ، ويختار رجال يهوذا داود ملكًا ، بينما يختار إبنير ـ قائد جيش الملك شاول ـ ايشبوشت ابن شاول ملكًا على إسرائيل . وبالطبع يتقاتل الجيشان ، وينتصر جيش داود ، ويصبح ملكًا على كل إسرائيل . ثم استولى داود على أورشليم ، وبنى قصره بها ، «وبعد أن انتقل داود من حبرون إلى أورشليم اتخذ لنفسه زوجات ومحظيات وأنجب أبناء وبنات» ـ سفر صموئيل الثانى ، ٥ : ١٣ .

ثم يستمر السفر فى رواية حروب داود وانتصاراته على الفلسطينيين ، والموآبيين الذين أصبحوا عبيداً يدفعون له الجزية ، كذلك حارب الآراميين وهزمهم ، واستولى على ذهبهم ونحاسهم ، وبعد ذلك أخضع أدوم ، ثم هزم الآراميين ثانية ، والعمونيين .

ثم يحكى الإصحاح ١١ عن :

خطيئة داود وخداعه

. . وفى إحدى الأمسيات نهض داود عن سريره وأخذ يتمشى على سطح قصره ، فشاهد امرأة ذات جمال أخاذ تستحم . . . فأبلغه أحدهم : هذه بثشبع زوجة أوريا الحثى . . . فبعث يستدعيها . . فأقبلت إليه وضاجعها . . وحملت . .

مقتل أوريا

وفى الصباح، كتب داود رسالة جاء فيها: اجعلوا أوريا فى الخطوط الأولى.. ثم تراجعوا من ورائه ليلقى حتفه.

تبليغ داود مقتل أوريا

فانطلق الرسول إلى داود.... وقال: ... ومات عبدك أوريا...

زواج داود من بثشبع

مولد سليمان

ثم توجه داود إلى بثشبع وواساها وضاجعها فولدت له ابنًا دعاه سليمان(*).

يمضى السفر بعد ذلك يروى انتصارات داود، وانشقاق أحد أولاده عليه (أبشالوم)، حتى قاتلا بعضهما، وهرب داود، ثم انتصر جيشه على جيش أبشالوم ابنه، وقتله، وعاد داود لأورشليم. ثم تمرد عليه شبع بن بكرى، وتبعه كل رجال إسرائيل، إلى أن قطعت رأس شبع امرأة حكيمة وأعوانها، ثم يحكى سفر الملوك الأول عن:

(*) ينسب إنجيل متى، وإنجيل لوقا، المسيح عيسى ابن مريم إلى يوسف النجار كأب، ثم يصعد به النسب إلى سليمان ثم داود، وبعد ذلك إبراهيم أبى الأنبياء، ثم فى النهاية آدم.

وصايا داود لسليمان وموته

وعندما أحس داود بدنو أجله، أوصى سليمان ابنه قائلاً: أنا ماض إلى مصير كل أهل الأرض، فتشجع وكن رجلاً. احفظ شرائع إلهك... ثم مات داود ودفن في أورشليم - الإصحاح ٢: ١ - ١٠

حياة نبي الله داود عليه السلام (*)، كما جاءت في الكتاب المقدس، تناقض الكثير من حياة عيسى عليه السلام، والذي تشبهه الكثير من الكتابات المسيحية بالحمل الوديع.. فهو لم يحارب، ولم يسكن قصراً، ولم يتزوج، وقال مملكتي ليست في هذا العالم. كيف إذن تتفق قيم الحياة وتقاليدها التي تؤخذ من حياة داود عليه السلام - كما رواها العهد القديم، وهو المرجع لدى اليهود والمسيحيين - مع القيم التي تؤخذ من حياة المسيح كما رواها العهد الجديد؟

وقصة نبي الله داود - كما جاءت في العهد القديم - ليست استثناءً عما جاء فيه من بدايته لنهايته.. بل هناك عنف وقتل ومؤامرات وزنا محارم أكثر من هذا... ومتكرر بصفة دائمة... وبالطبع هناك جزء آخر في العهد القديم يزخر بالحكمة... ومنه مزامير داود، وهي خليط من التسابيح والحكمة والفلسفة.

●● **ثالثًا:** ... لو تذكرنا كبرى حروب القرن العشرين، لوجدنا الغرب - بحضارته سواء كانت المسيحية، أم اليهودية المسيحية -

---

(*) لمن يريد أن يقرأ ما قاله القرآن عن نبي الله داود، يمكنه أن يراجع الآيات الآتية: البقرة: ٢٥١ - النساء: ١٦٣ - المائدة: ٧٨، ٧٩ - الإسراء: ٥٥ - الأنبياء: ٧٩، ٨٠، ٨٥، ٨٦ - النمل ١٥، ١٦ - سبأ: ١٠، ١١ - ص: ١٧ إلى ٢٦، ٣٠، ٤٨.

أشعل فى سبيل مصالحه، حربين عالميتين، أسفرتا عن بضع عشرات الملايين من القتلى، وما يزيد عن المائة مليون إذا ألحقنا بالقتلى المصابين وبقية الضحايا، مع دمار مئات المدن وآلاف القرى(*).

ثم نجد أن الولايات المتحدة خاضت بالإضافة لتلك الحربين: الحرب الكورية، ثم حرب ڤيتنام، ثم حرب الخليج الأولى، ثم حرب البلقان، كما أنها أرسلت قوات مقاتلة لكل من لبنان وپنما والصومال، ونيكاراجوا، والمملكة السعودية والخليج العربى.

أما بريطانيا العظمى، فقد خاضت الحربين العالميتين، ثم حرب السويس، وحرب الأرچنتين (فوكلاند)، وحرب الخليج الأولى، وحرب البلقان. أى مثل الولايات المتحدة: حربين عالميتين، وأربع حروب إقليمية لكل منهما... أى حرب كل ستة عشر عامًا، خلاف التدخلات، وخلاف الحرب الباردة مع الاتحاد السوڤييتى.

ولو عدنا للقرن التاسع عشر، لوجدنا للغرب المسيحى، أو اليهودى المسيحى المعدلات نفسها فى الحروب، ولكن بعدد ضحايا أقل، نظراً لقصور تكنولوچيا القرن التاسع عشر عن إراقة الدماء بكفاءة القرن العشرين.

(*) ما زالت مصر تدفع ثمن الحرب العالمية الثانية ـ التى لم يكن لها فيها ناقة ولا جمل ـ فما زال شمال الصحراء الغربية يشكو من حوالى ٢٠ مليون لغم تركتها جيوش الألمان والحلفاء، وتمثل ما يقرب من خمس الألغام المدفونة فى العالم كله، أصابت ما يقرب من عشرة آلاف ضحية ما بين قتيل إلى مصاب، وتمنع مصر من زراعة تلك المنطقة (أكثر من نصف مليون فدان) التى كانت فى يوم من الأيام من أخصب الأراضى الزراعية بمصر.

ولا يفوتنا أن نذكر أن الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة استمرت حوالى خمس سنوات فى منتصف القرن التاسع عشر، وسقط فيها أكثر من نصف مليون أمريكى، ولم يكن تعداد الشعب الأمريكى ذلك الوقت إلا واحداً وثلاثين مليونًا(*)، أى راح ضحية تلك الحرب ما يقرب من شخصين من كل مائة شخص، بما فى ذلك الأطفال والنساء والشيوخ، بالإضافة لأكثر من ذلك من المصابين.

● يجتمع الشعبان الإنجليزى والأمريكى فى أن أغلبية كل منهما أنجلوساكسون بيض، وپروتستانت **White Anglo Saxon Protestant (WASP)**

فهم يعتبرون الكتاب المقدس هو المصدر الأول والرئيسى والأعلى للديانة المسيحية، قبل أقوال وشروحات وقوانين وتاريخ الكنيسة الكاثوليكية، وباباواتها وقديسيها وقساوستها.

كذلك يجمع الشعبين الاعتقادُ بأنهما «الشعب المختار»، تلك الأسطورة الأكثر دموية وظلمًا فى تاريخ البشرية، نتيجة تحريفها وتأويلها الشاذ.

وعند كلا الشعبين، لذلك، وعلى ذلك، رسالة تبشيرية من عند الإله للعالم.. أخذت عدة مصطلحات مثل:

(*) موجز تاريخ الولايات المتحدة ـ آلان نيفز، هنرى ستيل كوماجر، لتل براون آند كومپانى، ترجمة محمد بدر الدين خليل، ونشرته دار المعارف سنة ١٩٨٣ ـ صفحة ٢١٧.

حمْل الرجل الأبيض ـ عبء الرجل الأبيض ـ رسالة الرجل الأبيض ـ المصير المحتوم ، أو المصير المبين .

بل هناك أسطورة أخرى ، وهى أن الأنجلوساكسون هم أحفاد قبائل (أسباط) بنى إسرائيل المفقودة .

لعل تلك السطور تبين للقارئ العربى مصداقية عنوان الكتاب ، والذى ـ على أى حال ـ هو العنوان الذى اختارته المؤلفة القديرة ، وهى أجدر وأحق أن تبين وجهة نظرها من خلال صفحات الكتاب .

تبقى لنا ملاحظة . . .

أن التخطيط والعمل على توطين اليهود فى فلسطين ، لم يبدأ مع هيرتزل آخر القرن التاسع عشر ، ومن ثم وعد بلفور أوائل القرن العشرين ، ولكن قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وعلى وجه التحديد منذ القرن السابع عشر ، إن لم يكن قبل ذلك .

وشبيه بالتخطيط الخارجى للمنطقة ذلك الوقت ، نعاصر الآن ، وعلى وجه التحديد منذ ما يقارب عقدين ، تخطيطًا آخر للمنطقة ، تقوم به الولايات المتحدة وإسرائيل وبريطانيا . . . **ولعلنا لا نستغرق فى نومنا ورضائنا المريض عن أنفسنا . . .**

* * *

عودة إلى الكتاب الذى بين أيدينا . . . موضوع الكتاب هو علاقة بريطانيا بفلسطين من العصر البرونزى إلى وعد بلفور .

ترى الكاتبة ضرورة توافر شرطين للتدخل البريطانى فى فلسطين . .

* **العامل الدينى** . . . وهو الكتاب المقدس .

* **العامل الإمبريالى** . . أو المصالح البريطانية . . . وهو السيف . . .

وقد وضعت العامل الدينى . . أى الكتاب المقدس ، قبل السيف .

فإذا غاب أحد العاملين امتنع التدخل .

ويمكننا إضافة مفهوم آخر لدى البروتستانت ، يناسب التدخل الإمبريالى ، والسعى وراء الثروة والقوة والسلطة ، وهو اعتقادهم بأن الثروة والقوة دليلان على رضا الرب ومباركته . . أما الفقر والضعف والتخلف ، فأدلة على عدم رضا الرب وعدم مباركته . . وعلى ذلك فقد برر البعض منهم ـ بذلك ـ كل عمليات الاستعمار التى تمت فى القرون الثلاثة الماضية ، وحتى اليوم .

وقد توقفت الكاتبة عند وعد بلفور ؛ لأنها أوضحت أنه لن يكون باستطاعتها أن تتناول الأحداث التى تلت ذلك بموضوعية ، دون أن تنحاز لبنى جلدتها .

والآن لنترك القارئ وباربارا توخمان ـ التى توفيت عام ١٩٨٩م ـ وعملها المهم «**الكتاب المقدس والسيف**» . . . الذى كتبته باقتدار كبير ، فجاء كرواية شيقة ـ برغم ما فيه من دماء ـ وبأسلوب رشيق جذاب ، وفى بعض الأحيان ساخر ، وعلى مستوى عال وعميق فى مجال التاريخ الدينى والسياسى ، برغم بعض التحفظات عليه .

عادل المعلم

يناير ٢٠٠٤م

الفصل الأول

الأصول: أسطورة متفق عليها



١- البحث عن الأجداد

قال الدكتور ويليام تومسون أسقف يورك، مخاطبًا أعضاء «صندوق استكشاف فلسطين» عام ١٨٧٥م: «السبب فى الاتجاه نحو فلسطين والاهتمام بها هو أن فلسطين بلدنا، ولقد استخدمت هذا اللفظ من قبل «بلدنا»، وأرفض أن أستخدم سواه».

ولقد فسر مقولته هذه على أساس أن فلسطين هى بلده؛ لأنها أعطته «القوانين التى يحاول العيش بها» كما أعطته «أعظم معرفة»، وكان بالطبع يعنى الكتاب المقدس، كتاب الأمة العبرية ورسلها، والذى أصبح بمرور الوقت كما قال توماس هاكسلى: الملحمة القومية لانجلترا.

ولمئات السنين توجه الإنجليز بأنظارهم إلى فلسطين بحثًا عن أسلافهم كما تتوجه أسراب سمك السلمون من البحر إلى أماكن ميلادها. وقبل أن يقدم علم الآثار الحديث إجابة علمية، فقد وجهت ذكرى عرقية خافتة أنظار الإنجليز إلى الشرق، ففطرة الإنسان تتجه أولاً لاكتشاف أصله - ربما خالقه أولاً ثم أصله. لقد بدأ يتساءل عن أصله، ويتخيله وينسج الحكايات حوله منذ بدأ التفكير، وكانت صورة الأصل أو الجد التى طورها الإنجليز عبارة عن شخصية ثنائية هى مزيج من بروتس حفيد أنياس الطروادى وجومر حفيد نوح، وكان باختصار نتاج مزيج من الأساطير الإغريقية والرومانية الكلاسيكية والأساطير العبرية عن فلسطين، كان مهاجراً من آسيا الصغرى مهد الحضارات.

وإلى حد ما، فقد كانت نظرة صناع الصورة هؤلاء صحيحة دون أن يعلموا ذلك. فبعد عدة قرون، اتضح - ويا للعجب - تشابه الصورة التى تخيلها علماء علم الإنسان لأول ساكن لبريطانيا - من ناحية - شكل الرأس ولون الشعر، وبعض البقايا الحجرية التى تم الكشف عنها، مع قاطنى هذا الجزء من العالم - آسيا الصغرى. وبدون الدخول فى تفاصيل وأسباب علماء علم الإنسان، فإنه يمكننا القول بأن الإنسان الأول فى بريطانيا، وقبل قدوم العرق الأوروبى إلى بريطانيا، كان من أصل متوسطى، وبالتحديد من منطقة الشرق الأوسط. وتعد هذه الصورة الباهتة من العصر الحجرى، والتى يقبع هيكلها مكومًا، صامتًا، عاريًا فى حجرات الدفن المحفورة، هى نتاج البحث العلمى عن الأصول والجذور البريطانية.

ولكن من كان هو؟ وما جذوره؟

لقد تتبع علماء علم الإنسان التقليدى أصول هذا الجد البريطانى وأرجعوها إلى آسيا الصغرى، وبالتحديد إلى تلك البقعة النائية غير المؤكدة، حيث بدأ نوح وعائلته إعادة تعمير العالم بعد الطوفان، وبالطبع لا يعد أسلوب التتبع التقليدى حقيقة علمية، ولكن الأخيرة يصعب الحصول عليها لعدم توافرها بشكل دائم. وعند صعوبة الحصول على حقائق علمية مثبتة، يكون التوقع التقليدى هو البديل، وقد عرّف أحد علماء التاريخ، السير چون موريس چونز، التوقع

التقليدى بأنه «وجهة النظر العامـة عما حدث ذات يوم»، وبهذا تصبح إحدى قواعد معلوماتنا التى يجب تحـليلها وتفسيرها، وعلى هذا عادة ما يكون لهذه التوقعات أثر أكبر من الحقائق على سلوك الأمم.

وعادة ما يحكم تاريخ أى أمة وماضيها، أفعالها الحاضرة، بقدر ما يؤمن مواطنوها بماهية ماضيهم وتاريخهم.وكما عبر ناپوليون بإيجاز، فإن التاريخ «أسطورة متفق عليها».

وبهـذا فـإن أسطورة بريطانيـا تبـدأ بأسطورة بروتـس وجـومـر وأجدادهما: أنياس ونوح، وسواء كـان أنياس قد عاش فى طروادة أو كان نوح قـد عاش فى ميزوپوتامـيا(*)، فإن ذلك غيـر معلوم، ولكن يمكننا على أى حال القـول بأن مهاجرين حـقيقيين - من حيث كان مفترضًا أن أنياس ونوح كانا يعيـشان - قد عمروا أمم العالم الغربى، ومن الممكن أن يكون شعب مـا قبل العرق الأوروبى الذى استـقر فى الجزر البريطانية قد جلب معـه ذكريات وأساطير عن الأجداد والجذور الشرقية. وبهذا فمـن الممكن أن يكون لأسطورة بروتس وجومر خلفية لا تقل صحة عن صحة نـظريات علماء الآثار، والذين توصلوا تقريبًا إلى نفس النتائج.

وعلى أى حـال، فقـد بدأت الأسطـورة تتـبلـور مبكـرًا فى العهـد الأنجلوساكـسونى بعد التحول الثانى إلى المسيـحية فى القرن

(*) بلاد ما بين النهرين، دجلة والفرات، أى العراق الآن.

السابع. لقد جلب الاحتلال الرومانى لبريطانيا فى خلال الثلاثة قرون الميلادية الأولى، الأساطير الكلاسيكية، كما جلب ديانة جديدة من الشرق، الديانة اليهومسيحية، وقد انتشرت هذه الديانة بين شعب ما قبل العرق الأوروبى وتعمقت بشدة مما جعلها تبقى حتى بعد الانسحاب الرومانى عام ٤١٠ ميلادية، وبعد الاندفاع الوثنى للأنجلوساكسون.

وفى هذه الأثناء، تعلم البريطانيون - على الأقل من كانوا على اتصال مباشر بالإدارة الرومانية - اللغة اللاتينية، وصاروا على دراية بالكتاب المقدس المترجم إلى اللاتينية، وتظهر أقدم مقالة معروفة فى تاريخ انجلترا (كتبها بريطانى وليس رومانى)، رسالة جيلداس، والتى كتبت عام ٥٥٠ ميلادية، دراية كاملة بالعهد القديم، وتروى حكاية جيلداس الاعتداءات المروعة التى قام بها الساكسون والجوت والدنماركيون على بنى قريته، والتى يقارنها بجلد واضطهاد الآشوريين والفلسطينيين القدماء لبنى إسرائيل القدماء. وبعد كل معركة، كان يستعير تشبيهًا من العهد القديم، وكان يضمن فى كل صفحة نصوصًا من أسفار موسى الخمسة وسفر الأنبياء وسفر المزامير.

وبعد مائتى عام، قدم «بيد الموقر- The Venerable Bede»، الأب الحقيقى للتاريخ الإنجليزى، افتراضات حذرة عن الأصول القومية، فهو يرجعها إلى سكيثيا، وهو الاسم المستخدم بواسطة علماء الجغرافيا

القدماء للمناطق المحيطة بالبحر الأسود، حيث كان الناس يعتقدون أن سفينة نوح قد رست على جبل أرارات، وأن سلالات العالم انحدرت من نسل نوح. ويقول بيد بأن «السيمبرى - The Cymbri»، القادمين من مكان ما بهذه المنطقة، هم أول من عمّر بريطانيا. ونلقى هؤلاء السيمبرى أو الكيمبرى أو الكيمرى، أو أيًا من مئات الهجاءات الأخرى للاسم، المهاجرين من الشرق، فى كل مراحل البحث عن البريطانيين الأوائل. لقد كانوا قبيلة حقيقية ظهرت فى شمال أوروبا مع القبائل التوتونية ليستقر بعضهم فى بلاد الغال والبعض الآخر فى بريطانيا، كما ورد عن علماء علم الإنسان المعاصرين.

ولا يتعامل بيد مع أساطير تدور حول بروتس وأبناء نوح، حيث كان أول ظهورهم كأجداد للبريطانيين فى عمل أدبى لمجهول، ولا يعرف أحد شيئًا عنه سوى اسمه، نينوس، ومؤلفه «تاريخ البريطانيين - Historia Britonum». وقد ثار الكثير من الجدل فى المراجع حول إذا ما كان يعيش فى القرن الثامن أم العاشر، فى انجلترا أم فى أيرلندا أم فى ويلز، وإن كان أحد شخصين أم شخصًا مختلفًا تمامًا عن الاثنين. وأيًا كانت هويته فقد ترك نينوس نصًا أصليًا عما قبل الفتح لايفرق بين أعمال الوحوش الضارية وأعمال الأنجلوساكسون، كما قال البروفيسور بولارد. ولا يتوقع منه أن يكون شديد الدقة فيما يختص بالأصول والأنساب. ويتحدث نينوس بشكل صريح ومباشر

عن بروتس الذى يقـول عنه: إن بريطانيـا قد سـميت باسـمه. وقـد تحمس مؤرخ القرن الثانى عـشر «جيوفرى أوف مونموث - Geoffrey of Monmouth»، لزيادة شعـبية بروتس، ولكن علمـاء التاريخ الأقل حمـاسًا فضلوا الالتزام بنص الكتـاب المقدس، واختاروا جـومر الذى ورد اسمه فى سـفر التكوين على أنه أحد أبناء يافث، الذيـن قسمت عليهم جرز «الجنتيل» (جزر غير اليهود).

لقد ثبـتت حركة الإصلاح فى القـرن السادس عشر وضع جـومر على أنه الجد الأول المفضل للبريطانيين، ومع حركة الإصلاح، أصبح الكتـاب المقدس الذى هو كلمـة الله المعلنة، المرجع الوحـيد، وسـفر التكوين هو التـفـسـير الوحـيـد المقـبول لأصل الإنـسان، وصـارت الاجتهـادات مثل اجتهادات جـيوفرى - والتى كانت ذات شعـبية فى العصـور الوسطى - ينظر إليهـا بريبة. ويقـول چون بال، وهو عالم تاريخ من عصـر هنرى الثامن: «**لو أننا وجـدنا الاجتـهـادات مخـتلطة بالخرافات فيجب قياسها على أساس ما ورد فى الكتاب المقدس، وأن نطيل البال إلى حد ما على فـساد عصورها**». وقد تبعه فى وجـهة نظره عالم التاريخ الكبيـر فى العصر الإليزابيثى ويليام كـامدن، والذى حاول أن يحسم مـوضوع الأصول حسـمًا قاطعًـا، وقد استبـعد نظرية بروتس واستقر على نظرية جومر، والذى يقول عنه إنه «أعطى الأصل والاسم للجوماريين، والذين أطلق عليهم فيما بعد الكيمبرى أو الكيمرى...

وأن البريطانيين أو الكيمرى هم الذرية الحقيقية لجومر». ويقول: إن هذا هو حكمه أو حدسه فيما يتعلق بأصول البريطانيين - ثم يحذر كامدن بحرص العالم الحقيقى - العلماء من أن البحث عن الأجداد الأوائل قد لا ينجح أبدًا «حيث إن الأجداد الأوائل كامنون فى غياهب الماضى، كما لو كانوا فى قبر مظلم، والأمل فى الوصول إليهم ضعيف جدًا أو شبه منعدم مهما كان الاجتهاد، حيث إنهم مدفونون فى طى النسيان».

ومنذ أيام كامدن، أصبح البحث عن الأجداد عملية دمج لقصة الكتاب المقدس مع المعرفة العلمية المتزايدة عن الإنسان القديم وتحركاته. وحين وضع «ميلتون - Milton» مؤلفه «تاريخ انجلترا - History of England» بعد كامدن بقرن، تغير جومر فى خلال هذه العملية من شخص إلى قبيلة. ويقول ميلتون عنها: إنها «فرية غريبة» أن يقال إن أى فرد معين من أبناء يافث قد استقر حقًا فى بريطانيا، ولكنه يكمل: إن أبناء جومر دون أدنى شك كما هو متوقع قد عمّروا الشمال والغرب بعد الفيضان، ويعرف هؤلاء الأبناء عمومًا الآن على أنهم قبيلة الكيمرى الذين استمد الدارسون اسمهم من جومر من خلال أبحاث معروفة عن التغييرات العبرية وحروف الهجاء اليونانية والسلتية.

يسخر علماء الإنسان الآن من اللغة كخيط يقود إلى الماضى،

ويتبعون بدلاً منها أدلة صناعات الإنسان والعظام، ويعلنون أن التكوينات الحجرية - وليس بقاء الكلمات المستعارة - هو معيار النسب العرقى، ويقولون إن المحققين الأصليين الذين تتبعوا اللغة بدلاً من العظام قد اختاروا الطريق الخاطئ. ولكن لا يبدو عليهم أنهم وصلوا إلى أى استنتاج مدهش مختلف عما وصل إليه السابقون الذين واءموا حدسهم مع حدود سفر التكوين. لقد استبدلوا جومر الفرد بقبيلة من الشرق كأجداد للسلتيين البريطانيين.

وحيث إن «بيد» كان يعيش فيما يسعدنا أن نسميه العصور المظلمة، فقد اكتشف الكيمبرى، وفى ضوء علم الإنسان الحديث فقد سمح للكيمبرى بالبقاء، بالرغم من اختفاء جومر، وكل هذا يشير ببساطة إلى أن التوقع التقليدى أو «التفسير الشائع لما قد حدث ذات يوم» لا يعلو عليه التفسير العلمى دائمًا.

٢- الفينيقيون فى انجلترا

إن الجد المشخص الذى يمثله جومر أو بروتس هو محض أسطورة، ولكن الربط الحقيقى بين انجلترا القديمة وأرض كنعان قد ثبت من عصر موسى بواسطة شعوب قد اختفت منذ ذلك الأمد البعيد: وهم شعوب الفينيقيين وما قبل السلتيين. لقد كان الفينيقيون فى صور وصيدون هم بحّارة وتجار العالم القديم الأقوياء. لقد استطاعوا الإبحار إلى المحيط الأطلنطى دون بوصلة ودون آلة السدس

الفلكية. ويحكى سفر الملوك عن كيفية قيادتهم لغزوات الملك سليمان حتى تارسيس وهى الاسم القديم لقاديس.

لقد تمسك البريطانيون المولعون بالعصور القديمة بهذه الشعوب ونسبوا لها فضل اكتشاف بريطانيا والاستقرار بها، أو على الأقل الاتجار معها. وبالرغم من عدم إثبات ذلك بما لا يدع مجالاً للشك، فإن صلة الفينيقيين فى نطاق الجائز، ولكن حماس علماء التاريخ البريطانيين فى الدفاع عنها لا يفسر بمعقوليتها بقدر ما يفسر بأهمية صلتها بشعب من الشعوب القديمة وبأشخاص حقيقيين من العهد القديم.

ويرتكز الدليل فى ذلك على استخدام القصدير فى العصر البرونزى فى الشرق. لقد كان القصدير يتم تعدينه فى كورنوال فى نفس الوقت. لقد ظهر القصدير كمادة للتجارة فى أسواق صور، كما نعرف من تقرير النبى حزقيال فى حوالى عام ٦٠٠ قبل الميلاد. وتبعًا لما كتبه «هيرودوت - Herodotus» فى ٤٤٠ قبل الميلاد، فإن هذا القصدير قد جاء من جزيرة كاستريدس، وهو اسم لا يعطى أى دليل جغرافى؛ لأن معناه هو القصدير باليونانية، وبالرغم من ذلك، فقد عرفت بواسطة كل الجغرافيين الكلاسيكيين على أنها جزر كورنوال أو كورنوال نفسها اتباعًا لنظرية هيرودوت.

وقد وُجد دليل آخر فى احتكار فينيقى آخر، وهو الصبغة

الأرجوانية الشهيرة المستمدة من المحار، حين وجدت بقايا محارات ذات صبغة أرجوانية في مخلفات العصر البرونزى على شاطئ كورنوال وديفون، وكما كان كامدن أول من وضع سلالة جومر والكيمبرى والسلتيين في منظور حديث، فقد كان أول من بلور دور الفينيقيين فى بريطانيا القديمة. ومع إحياء التعليم التقليدى فى القرن السادس عشر فى أوروبا، فقد اتبع الباحثون الإنجليز كامدن فى الكشف عن تجارة القصدير عند القدماء، واكتشفوا - مما أسعدهم - أن من خلال وسائلهم يمكنهم دفع جذور بريطانيا قديمًا لما يوازى بلاد الإغريق وطروادة وأرض الكتاب المقدس. وقد تحمس أحد باحثى القرن السابع عشر «أليت سامز - Aylett Sammes»، لهذه النظرية بشدة إلى الحد الذى جعله يؤلف كتابًا أسماه «تاريخ البريطانيين القدماء مستمدًا من الفينيقيين» أثبت فيه أن أغلب لغة وعادات ومعبودات ومناصب وتشريفات البريطانيين القدماء، كلها مستمدة بوضوح من الفينيقيين.

والأكثر أهمية من القصدير والمحار هو الأدلة الحجرية، فالآثار الحجرية الضخمة المحيرة عند شاهد «ستونهنج وأفبرى - Stonehenge and Avebury»، والتى لا يعرف أحد كيف أقيمت بواسطة عبدة الشمس البدائيين فى بريطانيا، لها علاقة أكيدة باستخدام الكنعانيين للحجارة المقدسة فى عبادة آلهتهم المحلية. وقد اعتقد د. بورلاس،

وهو من رواد علماء آثار الكورنيين، وهو يحفر بين ركام وروابى ما قبل التاريخ فى موطنه كورنوال، أن المسلات البدائية الموجودة فى بريطانيا قد أقامها زوار فينيقيون فى العصور القديمة على شرف معبوداتهم القومية «حيث إن الشعوب الكنعانية مولعة بتقديس وتشريف الأحجار البدائية». لقد كتب ذلك مبكرًا فى ١٧٦٩م.

لقد اعتقد بورلاس ومن تبعه من الباحثين، أن الفينيقيين اكتشفوا بريطانيا عام ١٤٠٠ قبل الميلاد. والأمر المثير للدهشة هو أن علماء آثار العصر الحديث يعطون عام ١٤٠٠ قبل الميلاد كعمر تقريبى للستونهنج والأفبرى. وينسبون الأحجار بالطبع ليس للفينيقيين ولا للكهنة الديوريديين وإنما لشعوب «بيكر - Beaker». لقد انتشر أبناء الشعوب الهندوأوروپية من نقطة انطلاق فى أراضى غرب البحر الأبيض المتوسط إلى جبال الألب وبريطانيا فى حوالى عام ١٨٠٠ قبل الميلاد فى بداية العصر البرونزى، وقد كانوا أناسًا مفتولى العضلات وذوى عظام كبيرة منتمين للحضارة البدوية، معتمدين أساسًا على الرعى، وإن كانوا ذوى دراية بالزراعة، وكانوا ذوى رءوس مستديرة ويبنون روابى مستديرة. وقد طردوا من بريطانيا سكان العصر الحجرى الحديث، والذين كان يلائمهم أن يكون لهم رءوس طويلة ويبنون روابى طويلة. وعلماء الآثار معجبون بشدة بشعب البيكر، الذين يقتفون أثر هجراتهم عبر أوروپا من خلال آثار أسمال البيكر وأزرارهم المعدنية ومشابك

أحزمتهم، ولكن أيًا كـانت استعداداتهم فهم غير معـروفين إلا مؤخرًا جدًا كـمنافسين على لقب الأجـداد الأوائل فى مخـيلة شعب يـقرأ الكتاب المقـدس. ولا يعد هيكل عظمى مدفـون مع أى كم من أقداح الصيادلة ومشابك الأحزمة جذابًا كجد بنفس درجة جذب حكّام صور وصيدون القدماء المعروفين(*) من خلال صفحات العهد القديم.

وقد حقق التوقع التقليدى تجسيـدًا رسميًا حين كلف «اللورد ليتون - Lord Leighton» رئيس الأكاديمية الملكيـة برسم لوحة زيتية جدارية تمثل التجـارة القديمة على جدار غرفـة التجارة الملكية بـلندن، فصور الفينيقيين بلحاهم السوداء يفردون الأقـمشة الأرجوانية أمام البريطانيين الطامعين الذين يقايضونهم بجلود الحيوانات وسبائك القصدير.

وفى ١٤٦ ق. م انتصر الرومان أخيرًا على القرطاجيين فى حربهم للسـيطرة على البـحـر الأبيض المتـوسط. ومنذ ذلك الحـين يتـلاشى الفينيـقيون من التاريخ وتنتقـل السيطرة على الشرق مؤقـتًا إلى رجال إيطاليا الصـاعدين الذين سرعان ما أصـبحوا أسيـاد فلسطين وبريطانيا وقدموا رابطًا جديدًا بين الاثنتين.

(*) وما زالت الفكرة مسـيطرة، ففى ١٩٢٤م نشر لورانس وادل كتاب ادعـاءات علمية اسمه «أصول البريطانيين والاسكتلانديين والأنجلوساكسونيين الفينيقية»، وقد استند المؤلف إلى أدلة المخلفـات الحجرية فى دعم وجـهة نظره، ولكن كان يضـايقه أن الفينيقيين كانوا من «أصل سامى»، فقـد كان يدمر جدية ادعائه بإصراره على أنهم من «أصل آرى»، وأن الصـور الموجودة تتطلب تـعديلات أنفـية بسـيطة ليوائمـوا الصورة الآرية.

٣- أرض اليهود الرومانية وبريطانيا الرومانية

وحين خـرجت بريطانيا من ضباب مـا قبل التاريخ إلى صـفحات تعليقات «يوليوس سيزار - Julius Caesar» كان معبد اليهود لا يزال قائمًا. وفى خلال القرن التالى بين عهـد سيزار وسقوط المعبد فى عام ٧٠ ميـلادية، أخضعت رومـا كلاً من اليهـود والبريطانيـين، وأصبح كلاهما مواطنين فى الإمبراطورية الرومـانية ويربطهما الجيش الرومانى ذو الحضور القوى.

لقد دخل «پومـپاى - Pompey» إلى القدس فى سنة ٦٣ ق. م. حين اسـتعان الوريث الضعـيف للأسرة المكابية على أخـيه - الذى لا يقل عنه سلبية - بالرومان. وبالطبع فقد بقى الرومان. وقلص پومپاى أرض اليهود إلى مقاطعة، وبالرغم من أنهـا استمتعت بعد ذلك بمرتبة المملكة المسـتقلة فى عهـد «هيرود - Herod» إلا أنها ظلت جزءًا من الإمبراطورية الرومانية.

وقد لعب الـشقاق الأهلى نفس الـدور فى بريطانيا، وفـتح الباب لانتصار الرومان، وبالرغم من أن سيزار كان قد انتصر فى مناوشة مع بريطانيا، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يكمل النصـر فى المعركة لانشغاله بمحاربة الغـال وبمشاكل الوطن، ولكن ظل رومـا المهيب كـان بالفعل يرزح على بريطانيا. وجـاءت الفرصة لاستبـدال المادة بالظل فى القرن الرابع الميلادى حـين كان الإمـبراطور «كلوديوس - Claudius» يحكم

روما، والملك «كينوبولين أو سيمبلين - Cinoboline or Cynbeline» يحكم بريطانيا.

لقد نتجت الحرب الأهلية فى بريطانيا عن تمرد الأبناء ومشاغبة القبائل ومشاكل الإتاوات والضرائب، مما دفع شيخ قبيلة متمرد للجوء إلى روما من أجل العون، وكشف لهم عن الصراعات الداخلية بين بنى بلده، وعاد بجيوش الرومان المتحمسة فى عقبيه. وبالرغم من أن الإمبراطور كلوديوس المولع بالكتب لم يكن مقاتلاً، إلا أنه لم يكن أحمقَ، فقد رأى فرصة النصر كأى رجل عسكرى. وحين انقشع الغبار كان الرومان قد ثبتوا أنفسهم كالمعتاد، وجاء كلوديوس بنفسه إلى بريطانيا للاحتفال بالنصر وشيد قوس النصر على شرف المناسبة فى الوطن.

ويستمر التزاوج بين أقدارهما، فيعلو شأن القبائل السلتية فى ظل «بوديشيا - Bodicea»، ويعلو شأن اليهود فى أرض اليهود على الطرف الآخر فى عهد الإمبراطور «نيرو - Nero» فى نفس الوقت. لقد كان كلا الارتفاعين ميئوسًا منه منذ البدء، وكان كلاهما ملهمًا بالتعصب الوطنى، واستمر بالشجاعة المستميتة، وفشل كلاهما. ففى عام ٨١ ميلادية استنفرت وحشية الرومان الملكة بوديشيا، فجهزت جيشًا من المركبات، واجتاحت المستعمرات الرومانية فى انفجار قوى من أجل الحرية، وكانت ضربة قوية وشجاعة لا يمكن كبحها، ولكن

التـعزيزات الرومـانيـة عبـرت القناة، وسـحـقت ثورة الملكة وذبحت شعبـها، وسطرت نهاية محـاولات بريطانيا السلتية للتـخلص من نير الحكم الرومانى. وبعد ستة أعوام، حين حاول اليهود المتحمسون بالمثل خلع حاكمهم الرومانى، وصمدوا ثلاثة أعوام أمـام جيوش «فسپاسيان وتيتس - Vespasian and Tits»، ولكن فى نهاية الأمر، حين تضوروا جوعًا، اقتلعت العاصفـة أورشليم، ودمرت النيران المعبد، ولم تقم له بعدها قائمة، وأسقطت دولة اليهود.

«أى فكرة مجنونة عـن الانتصار على رومـا قد دفعت اليـهود إلى هذا، فى حين أن كل الشعوب الأخـرى قد هزمت أمامهم؟» كان هذا هو تساؤل تيتس الوسيم الذى ذكرهم بالهزيمة القريبة للبريطانيين. لقد اجـتـمـعت فلسطـين وبريطانيـا على شـخص هـذا الچنرال الشـاب وإمبراطور المسـتقبل ومحـبوب الآلهة، وقد كان هو نـفسه على دراية بذلك. وبينما كان يقف ذات يوم على الحصون المتداعية، كانت النيران تقرقع وتلتهم المـعبد المقدس الذى كان يحـاول دون جدوى أن يحافظ عليه من تعـصب آخر مدافعـى الخنادق ومن ثورة الرعاع من جنوده. فمن داخل السـور كانت ترتفع رائحة كـريهة نتنة للجثث قـتلى الجوع المنتشـرين فى الشوارع دون أن يدفنهم أحـد، وخارج الأسـوار كانت توجد غابة من الصلبان تنوء بحملهـا المتعفن من المواطنين الذين وقعوا بين الجوع والرومـان، والذين أسرهم وصلبهم المحاصـرون حيث إنهم كانوا يـسعون فى كل ليـلة للتسلل خـارج المدينة المنكوبة، ولم تجلب

الأسوار سوى الموت للمدينة. وبينما كان تيتس ينظر حوله، تذكر أسوارًا أخرى خذلت المدافعين عنها. وسأل السجناء: «بالله عليكم أى عائق يمكن أن يكون أكبر من حائط المحيط الذى يحيط ببريطانيا والذى انحنى أمام ذراع روما القوية؟».

ولو أن المصادفة كانت قد أدهشت تيتس فقد كان أثرها أكبر على الإنجليز فى العصر المسيحى، فقد اعتقدوا أن انتصار الرومان كان تعبيرًا عن غضب الله على البريطانيين لكونهم وثنيين، وعلى اليهود لكونهم رفضوا المسيح. وبدا ظهور «ڤسپاسيان» كأداة للتكفير فى كلتا الحالتين فى العصر المسيحى، كما لو كان تدخلاً من الله. وكان ڤسپاسيان - الرومانى المرح، المادى السكير - نفسه سيدهش لو أنه عرف أنه كان أداة لإله لم يسمع به قط!

ودائمًا ما تصر روح التاريخ الرومانسية على أن فى هذه اللحظة من الزمان تلاقت أقدار البريطانيين واليهود للحظة وجيزة، فلا بد أن الشعبين الثائرين قد اكتسبا خبرة ببعضهما البعض، فكما نعلم، فقد كانت روما تجند رعايا مستعمراتها بما فيهم البريطانيين واليهود، ليخدموا فى الجيوش المساعدة فى أى جزء من الإمبراطورية، فهل كان يمكن أن يوجد جنود يهود فى الجيوش الرومانية التى أحرقت لونديني‍م حين كانت خاضعة لقوات بوديشيا الثائرة؟ وهل كان يمكن أن يوجد جنود بريطانيون فى جيوش (تيتس) الرومانية التى دمرت أسوار القدس؟

ولو أنه وجد دليل فى أى مكان، فسيكون ذلك فى سجلات أعظم اثنين من علمـاء التاريخ المعاصـرين، تاكيتـس الرومانى ويوسيـفوس اليـهودى، فقـد كتـب كلاهمـا عن أحداث عـاصرها وشـارك فيـها شخصـيًا، فكتب يوسيـفوس كتاب «الحرب اليـهودية – The Jewish War»، وكـتب تاكيـتس كـتاب «أجـريكولا – Agricola»، ولكن لا يوجد دليل على هذا فى أى من الكتابين.

لقد كتب يوسـيفوس أنه لم يكن هناك شعب فـى العالم لا يوجد بين أفـراده بعض اليهود، وتـوجد أدلة على ذلك من خـلال إشارات الكتّاب القدماء للمـجتمعات اليهودية فى كل مقـاطعات الإمبراطورية من بلاد فارس حتى إسـبانيا، عدا بريطانيا فـقط، ومن الجائز جدًا أن يكون التجـار اليهـود أو العبيـد الأسرى من فلسطين قـد وصلوا إلى أقصى حدود الإمبراطورية الرومانيـة فى صحوتها، ولكن إن كان هذا قد حدث، فلم يتركوا أثرًا. لقد أثار قالب طوب واحد وعملة يهودية واحدة استُخرجا فى لندن منذ مائتى عام، كل على حدة، توقعات تملأ صـفحـات لدى المتـحمـسين، ولـكن الاثنان لا يدلان على شىء فى الواقع. فقد كان قـالب الطوب الذى وجد فى مارك لين عام ١٦٧٠م رومانى الصـنع، وكان على وجهـه حفـر بارز يمثل شـمشـون يشعل النيران فى أذيال الثـعالب ويدفعها إلى حـقل ذرة. ولكن هذا لا يثبت الكثيـر، فلم يكن اليهود هم الوحيـدين الذين يعرفون قصص الـعهد القديم، وفى كل الأحوال، فنادرًا ما كان اليهـود يمثلون أفراد شعبهم

فى الصـور. أمـا العـملة التى سُـكتْ فى أرض اليـهـود فى سنوات الاستقلال القليلة المريرة التى انتزعها «سيمون باركوتشبا - Simon Bar Cochba» بالقوة من الرومان، فتفشل بالمثل فى إثبات أن اليهود عاشوا فى لندن، حيـث كان من الممكن أن يكون قد جلـبها تاجـر واحد أو جندى رومانى التقطها واحتفظ بها كتذكار لمعركة.

ولكن هذا يستدعى إلى ذاكرتنا مصادفة غريبة أخرى، فقد استدعى الأمر مـرة أخرى استـدعـاء چنرال فى بريطانيا - وفى هـذه المرة كان مندوب الإمبراطور «يوليـوس سكستوس سيڤـيروس - Julius Sextus Severus» إلى فلسطين لإخمـاد ثورة «باركوتشبا» المتعـصبة المجنونة، وقد عاقب الـيهود بشدة مثـلما فعل «تيتس» قـبله بقرنين، ومنذ ذلك الحين، مُنع اليهود من دخول بيت المقـدس، ونفوا منها عدا بقايا قليلة من فلسطين.

وبالرغم من كل هذه المـصادفـات، يخـرج عـالم التـاريخ خـالى الوفـاض من رحلة البحث عن أدلـة على أى اتصال حـقيـقى تم بين الشعـبين فى هذا الوقت، ومنذ ذلك الحين، تفـرقت أقدارهما. فـقد خسر اليهود بلدهم وإن احتفظوا بشعورهم بجنسيتهم فى المنفى، بينما بقى السلتيون البـريطانيون فى بلدهم وإن خسروا شعورهم بجنـسيتهم تحت وطأة تعاقب الغزاة الغرباء عليهم.

***

الفصل الثانى

رسول إلى البريطانيين القدماء

يوسف الرامى (الذى من الرامة)(*)

(Joseph of Arimathea)

تضاعف البحث عن الأصول القومية فى البحث عن الأصول الدينية. وقد تطلب الحس القومى البريطانى وجود مؤسس ذى حضور قوى من جانب الكنيسة الإنجليزية - فبحثوا عنه فى فلسطين - ووجدوه فى شخص يوسف الرامى. وقد كان يوسف هو اليهودى الغنى والحوارى السرى الذى جلس صامتًا فى مجلس السانهدرين (the Sanhedrin) - الذى كان عضوًا فيه - عندما اتخذ المجلس قرارًا بتسليم المسيح لجيش بيلاطس. وفيما بعد ذهب يوسف علنًا لاستلام جثمان المسيح لدفنه. وكان أول شخص ذو غنى ومركز ينضم إلى الجماعة الجديدة، وكان بلا شك ينظر إليه على أنه خائن لطبقته؛ حيث إن إنجيل الجليل لم يكن يخاطب الأثرياء والطبقة العليا.

ونشأت أسطورته فى كنيسة «جلاستنبري - Glastonbury»، وهى الأقدم فى انجلترا والتى يرجع إليه الفضل فى وجودها. وفى أحد أناشيد تنيسون عن الملك، يقول الراهب:

من كتبنا القديمة أعرف

(*) هكذا جاء فى الأناجيل باللغة العربية: يوسف الذى من الرامة.

أن يوسف قـــادم لأجل جـــلاستـــنبـــرى
وهناك الأمير الوثنى «أرڤيراجس- Arviragus»،
والذى أعطاه جـزيرة مـوحلـة ليـبنى عليـهـا
كنيـسـة صغـيـرة منعـزلة فى الأيام الخـوالى

وبالطبع كـان تنيسـون قد عرف يوسـف عن طريق كتـاب مالورى «وفاة آرثر»، والذى قـال عن يوسف فى هذا السيـاق: «ولحسن الحظ فقد أتى لهذه الأراضى والتى كانت تسمى بريطانيا العظمى، واستطاع أن يقضى على الوثنى الذى كان يـحكم البلاد، وبعد ذلك دان الناس كلهم بالمسيحية».

أما عن مـؤلف مالورى، فإنه لم يكن بداية وإنمـا نهاية الكتب عن القـرون ذات التـاريخ الممـزوج بالأسطـورة، والذى يزداد كل يوم بما يغـذيه. وبمرور الوقت قـام كـتّـاب الـعـصـور الوسطى والشـعـراء الرومانسيون بالكتابة عنه باستفاضة ليصبح يوسف ليس فقط مبدع «تحول بريطانيا السلتية إلى المسيحية» وحامل الكأس المقدس، وإنما أيضًا امتدادًا - فى عـمق التاريخ السابق- للبطل الـبريطانى القـومى، الملك آرثر، وهمـزة الوصلَ - بطريقة غامضة - بين آرثر وبطل إسرائيل القومى، الملك داود.

أما لماذا اخـتار التاريخ الإنجليزى يوسف وليس سـواه؟ فربما تكمن الإجـابة فى أنه الرسـول الوحـيد الذى شـق طريقه مـن فلسطين إلى

بريطانيا. وخرج الرسل الآخرون من أرض اليهـود لحمل رسالة العهد الجديد، وكانت طرق الرومـان لبريطانيا مفتـوحة. وعلى أى حال، لا يستطيع أحد إنكار أنه لم يفعل ذلك، بشكل قاطع، خاصة حين تكون السجـلات فى ذلك الوقت ليست بالكثـيرة. وعلى الأقل فقـد كانت ليوسف مـيزة مهـمة، وهى فعـاليته فى الأحـداث التى تمخضت عن المسيـحيـة. فمن بين الرسل الاثنى عـشر، كانت رومـا قد اخـتارت «بطرس – Peter»، وإسبانيا قد اختارت «چيمس – James»، وفرنسا قد اختارت «فيليپ – Philip»، وما كان كبـرياء بريطانيا القومى ليرضى بمن هو أقل من يوسف حضوراً فى المشهد الأصلى.

ولا نعرف على وجه التحديد مَنْ حمل لواء المسيحية إلى بريطانيا، ولا يبدو أننا سنعـرف ذلك أبدًا. ولكن فى الواقع، وغالبًـا، أنها ربما تسربت بين المواطنين عبر جماعة الرومان المتحولين إلى المسيحية، تتبعًا للنمط السائد فى سـائر البلدان الرومانية. وبعد حـوالى مائتى عام من وفاة المسيح، كان الكتّاب المـعاصرون يذكرون مجتمعات مـسيحية فى بريطانيا. وبقدوم عام ٣١٤ ميلادية تمكنت الكنيسة السلتية فى بريطانيا من إثبات ذاتها لدرجة أنهـا بعثت بثلاثة من الأساقفة كوفـد لاجتماع مـجلس آرلس. ولكن الكنيـسـة لم ترضَ لاحقًـا عن هذه البـدايات المجهـولة الباهتة، فـتطلبت جَدًا ذا طراز بطولى قـديم، وبالتدريج تم قبول يوسف الرامى على أنه الرسول الأصلى للبريطانيين.

وبالرغم من عـدم تمكنه من ادّعاء براهين تاريـخية، فـقد استنتج الأسقف «سـتبس - Stubbs» الغنى عن التـعريف، بعد بـحث دقيق لكل الأدلة المتبقية، «أن أى إشـارة لوعظ رسول فى بريطانيا فى القرن الأول الميـلادى لا ترتكز إلا على «تخـمـين، أو خطأ، أو أسطورة». **وعلى هذا فإن يوسف الرامى «أسطورة متفق عليها».**

ولقـد سيطرت هذه الأسطورة إلى الحـد الذى جـعل من يوسف المؤسس المعـترف به رسـميّـا للكنيسـة البـريطانية فى نهـاية العصـور الوسطى. ويمكن لنـا أن نحدد بدقـة وقت حـدوث هذا، ففى عـام ١٤٣١م فى مـجلـس «بازل - Basle»، كـانت أولوية الجـلوس والبروتوكولات الأخرى الحساسة تحددها أقدمية كنائس الدول. وأشار الإنجليز إلى يـوسف على أنه دليلهم على أحقـيتهم فـى السبق، وفى صراع رهيـب مع مندوبى إسبـانيا استمر أيامًـا فى البلاغـة والخطابة باللاتينية، أصر الإنجليز على أن يـوسف قد وصل إلى بريطانيا قبل أن يصل چيمس إلى إسبانيا، وعلى أن الجميع يعلم بحقيقة أن چيمس قد قُتل قـبل أن يصل إلى إسبـانيا، وعلى أن جـلاستنبرى كـانت الدليل الملموس على أن يوسف قد وصل إلى بريطانيا، وعلى أنه بغض النظر عن صغـر المساحة التى حـولها من بريطانيا إلى المسـيحية، فـإن عدد الذين آمنوا بالمسيـحية لم يكن هو المهم فى هذا الصدد، وإنما أقـدمية الإيمان هى الأهم. وليـدعم أساقفة لندن و«روتشـستر- Rochester» الذين رأسوا الوفد الإنجليزى ادعاءهم، فقد صاغوا مذكرة كتبوا فيها:

«. . . كما تؤكد الكتب والسجلات القديمة، فمن المؤكد طبقًا لسجلات كنيسة جلاستنبرى فى أبرشية «باث»، أن يوسف الرامى قد حمل إلى انجلترا بصحبة اثنى عشر رفيقًا، هربًا إما من اضطهاد «هيرود- Herod» أو من اضطهاد سلطات روما العليا فى بلاد اليهود. وقد وعظ فى انجلترا بما تعلمه ورآه وسمعه من المسيح، وأن وعظه قد حوّل عددًا لا يحصى من الإنجليز إلى المسيحية، وأنه قد أُهدى الكثير من قبل العديدين الذين حولهم إلى الإيمان، وأنه قد ترك هذه الهدايا فيما بعد لكنيسة المسيح التى أنشأها حين كان بطرس يعظ بالإيمان فى «أنتيوش - Antioch». وصارت الكنيسة التى بناها يوسف أساس دير بمرتبة كنيسة كبيرة حفظها المسيح - تمجد اسمه - حتى يومنا هذا».

ونرى فى هذه المذكرة كيف تحولت الأسطورة إلى تاريخ.

ويكمن أحد أهم أسباب تطور أسطورة يوسف فى غيرة بريطانيا الدائمة من روما، بدافع المطالبة بأسبقية الكنيسة البريطانية على الكنيسة الرومانية. وكان شخص يوسف يشبع رغبة انجلترا فى التفوق على روما، وفى عزو إيمانها مباشرة للمصدر الرئيسى فى الأرض المقدسة. وتظهر نظرية رسول شخصى لبريطانيا أول ما تظهر بعد الغزو النورماندى مباشرة، وكان هذا الرسول الشخصى - فى النظرية - شاهدًا على - بل ومشاركًا فى أحداث الصلب والقيامة، وقد جاء رأسًا من فلسطين لجلب كلمة الرب لبريطانيا. وبالتالى احتقر النورمانديون كل ما هو ساكسونى وأحيوا

الثقـافة السلتية. وتزدهر الدورة الآرثرية مـحولة بطل بريطانيا السلتـية العظيم وفرسان المائدة المستديرة إلى أبطال عهـد الفرسان. كما تشتمل على أسطورة المطالبـة بالكأس المقـدس، ويصبح بطل هذه الأحـداث الأول من كان يومًا عضوًا فـى مجلس السانهدرين بأورشليم، يوسف الرامى.

وبفضل إضافة وتجميل واستعارة مؤرخى وشعراء القرون من الثانى عشر إلى الخامس عشر، من بعضـهم البعض، كبرت الأسطورة مقامًا وازدادت تفاصيلهـا، واكتسبت أدلة ملموسـة بمرور الأيام، حتى صار المزيج العجـيب من العهد الجـديد والاثنى عشر سـفرًا المشكوك فيـها والفولكلور السلتى والرومـانسية الفـرنسية جزءًا من التـراث القومى. وبحلول عام ١٤٦٤م تضمن تاريخ «چون هاردينج – John Hardyng» الشعرى عن مـاضى بريطانيا العبارة التـالية: «جاء يوسف الرامى إلى بريطانيا مع ڤسپاسيان ونصَّر جزءًا منها».

وفى خلال هذه القرون الثلاثة، تداخلت أسطورة التحـول إلى المسيحية تمامًا مع أسطورة المطالبـة بالكأس المقدس التى غذتهـا الحملات الصليبـية. وفى انجلتـرا، امتـزجت أسطورة الكأس المقـدس بالموروث السلتى لآرثر وفرسـانه حتى حاكت التاريخ وتشـبهت به بفضل تتـابع المؤرخين، وبلغت أغنى تطور لها فى أعمال «والتر ماپ– Walter Map» الذى كتب «الكأس المقدس ويوسف الرامى - Quete du Saint Graal, Joseph d'Arimathie»

و«مريلن - Merlin» فى عام ١١٧٠م. ويقول الباحثون بأن هنرى الثانى قد كلفه بكتابة روايته عن يوسف والكأس المقدس ليستخدم الرواية لأغراض سياسية، ألا وهى تدعيم مطالبته برئاسة كنيسة إنجليزية قومية معاصرة لكنيسة روما. وفى هذه الأثناء تعزز مجد وشرف جلاستنبرى حين حفر هنرى الثانى فى احتفال مذهل فناءها، وادعى عثوره على قبر آرثر وجوانيفير الحقيقى. وبذا تأكد كون جلاستنبرى مكان الدفن الرسمى للملك البطل. وكان هدف هنرى المتعمد هو رفع جلاستنبرى على كانتربرى، والتى كانت ترتبط بالنسبة له بذكريات أليمة مثل اغتيال «بيكيت - Becket»، وكانت قد اكتسبت شعبية أكثر من اللازم كهدف للحجاج لزيارة قبر بيكيت.

وقد ازدادت مكانة يوسف بسرعة، فلم يعد هو وأحفاده رموز الحفاظ على الكأس المقدس فقط، وإنما صار أيضًا يعتبر جد الملك آرثر نفسه. وعلى الغرار السائد بين مؤرخى العصور الوسطى، تدعى التقارير اللاحقة أنها تاريخية، وتقول بأن العناية الإلهية قد وجهت يوسف إلى أرض بريطانيا التى «وعد بها هو ونسله». وهناك ينجب سلالة تنحدر منها أم الملك آرثر، «وبذا يتأكد لنا أن الملك آرثر من نسل يوسف». كما يقول الكاتب المعروف باسم آرثر الجلاستنبرى الذى عاش فى القرن الخامس عشر.

وتجتمع العديد من الرموز القومية القيمة حول شخص يوسف

لتلتصق به؛ ليس الكأس المقدس فقط، وإنما السيف المقدس الذى أعطى آرثر الملك أيضًا. وكان هذا السيف ينتمى أصلاً للملك داود وهو «أروع سيف صنع على الإطلاق»، وقد أُخذ من المعبد وأعطى لسليمان، الذى أرسله عبر البحر فى سفينة إعجازية ليجد مالكه المحتوم، الفارس الخالص «الذى يجب أن يكون آخر سلالتى». ولم يكن هذا الفارس سوى «جالاهاد - Galahad» بالطبع، والذى حولته كيمياء الأسطورة إلى سليل سليمان ويوسف. كما يرث الدرع الأبيض الإعجازى مع صليب الدم الذى جلبه يوسف من سوريا. وفى مؤلف مالورى «وفاة آرثر»، يوصى يوسف - وهو على فراش الموت - بالدرع لجالاهاد، الذى لم يولد إلا بعد خمسمائة عام، والذى يسميه هو أيضًا بـ «آخر سلالتى».

ويعد سيف داود وسفينة سليمان إضافات متأخرة للأسطورة، ترجع إلى روايات القرن الخامس عشر. وبمرور القرون تحول آرثر وفرسانه - الذين تزايدت مصداقيتهم - إلى شخوص تاريخية حاربت فى معارك بريطانيا الأولى ضد الغزاة الساكسون. وربما يكون حتميًا أن يرغب الناس فى ربطهم بأبطال الكتاب المقدس الذين يمثلون قوة الملك فى إسرائيل فى ذروتها. أم هل يعد هذا الربط خيطًا آخر من خيوط الغزل الذى يعزو الكثير من التقاليد السلتية إلى مصادر فلسطينية؟

وقد ظهرت بعض العناصر العبرية الأخرى، حيث اختلط يوسف

الرامى بسميه من العهد القديم، يوسف بن يعقوب. ففى نص شعرى مجهول ألّفه «هنرى لونليك – Henry Lonelick» فى القرن الخامس عشر فى ثمانمائة صفحة، يجد يوسف حال وصوله إلى بريطانيا أنها يحكمها «مجرم وثنى عتيد» يسمى بالدوق «جانور – Gaanor» ويعمرها «Saracens»(*) مع كفار زنادقة آخرين عديدين. وبالطبع فقد كانت هذه هى نسخة العصور الوسطى من فرعون والمصريين. وكفرعون، يرى الدوق رؤيا، يفشل كهنته من الـ «Saracens» فى تفسيرها، ويستدعى يوسف ليفسرها، ويعترف الدوق بصدق تفسيره. ثم يفعل ما فعله «نبوخذ نصر» حين أول دانيال رؤياه، فيعلن استعداده لعبادة رب يوسف بدلاً من ربه ويتحول إلى المسيحية.

ويظهر رمز عبرى آخر فى الملك الصياد أو الفيشر كينج «Fisher King»، هذا الشخص المحورى فى كل روايات يوسف وغلاله، والذى يصبح حامى الكأس المقدس بعد وفاة يوسف ويعيش حتى ظهور جالاهاد. وفى بعض النسخ يظهر الفيشر كينج أولاً على أنه الملك «إيفالاك – Evalak»، وهو بطل سورى رافق يوسف خلال تجواله فى الشرق وصار أول المؤمنين به. ويرجع لقب فيشر كينج إلى كونه أُمر من الرب بصيد سمكة كانت طعامه هو ويوسف فى البرية، ومثل الوحش البحرى لوياثان أو «لفياثان – Leviathan» فى إعداد

(*) مصطلح تستخدمه المصادر الأوروبية – القديمة والحديثة – على العرب والمسلمين.

طعام الأبرار عند قدوم المسيح، فى التقاليد اليهودية، أو مثل لوياثان، فى سفر المزامير، حيث جعله الله «كلحم لقاطنى البرية»، كانت تلك السمكة لا يمكن أن يأكلها إلا الأبرار. ويمكننا أن نجد رمز الكأس المقدس نفسه كطلسم مانح للحياة، يستعيد العثور عليه أرض جدباء من الخراب إلى الإثمار، فى عدد لا يحصى من الثقافات الدينية، وإن كان يتحول أحيانًا إلى طبق أو فنجان. ونجده فى رواية «پارزيڤال - Parzival» لـ «إشينباخ»، حجرًا مقدسًا موجودًا منذ بدء الخليقة. وقد ربط الباحثون هذا الحجر بحجر «إشعيا - Asaiah» الثمين ذى الأساس الطاهر، حجر مركز الكون والذى كان وسادة يعقوب، وأحد الأركان الأساسية فى معبد سليمان. كما تتبنى الأساطير السلتية هذه الفكرة أيضًا، فتعتقد أن حجر التتويج المستدير، هو فى الأصل وسادة يعقوب، الذى جلبه إلى أيرلندا مهاجرون منسيون من قبيلة يعقوب، ثم انتقل إلى اسكتلندا، حيث سرقه الغزاة الإنجليز، ثم عاد هذا الحجر بطريقة مسرحية فى عام ١٩٥١م حين أعاده اسكتلنديون قوميون بسيارتهم إلى الوطن.

ولكن أن نبنى نظرية عن الروابط السلتية اليهودية بناءً على أسطورة خداعة مثل أسطورة يوسف والكأس المقدسة، يكون دربًا من الحماقة بالفعل، فما أن يخطو الباحث المغامر فى هذه الرمال الناعمة إلا وتسحبه فى شرك من الروايات الخيالية والفولكلورية والديانات المقارنة والشعراء الغنائيين، والألغاز الوثنية والمسيحية، والأساطير الشرقية

والسلتيـة، حيث يتنافس الباحـثون بلا أمل فى مسـتنقع من النصوص والأساطيـر. وينتج عن الموضوع نـفسه مناخ يكـون فيه حـتى التنفس خطرًا على الوضوح، مثل الغرابة المتعمدة فى أشعار «ت. س. إليوت – T.S. Elliot» «البرية – The Waste Land» التى يكون فيـها البرهان غير المباشر لأسطورة الكأس المقدس دليل إثبات كاف.

واستمـر الاعتقاد فى أن يوسف كان رسولاً إلى بريطانيـا راسخًا فى التقاليد الإنجليزية لقرون بعد الـعصور الوسطى، فقد أخذ «چون ليلاند – John Leland»، الدارس للأحداث النادرة فى القرن السـادس عشر، على عاتقه صدق رسولية يوسف فى بريطانيـا. وكذا فعل السير «ويليام دجديل – Sir William Dugdale» فى كتـابه «الأديرة الإنجيلـية»، وهو بحث فى تاريخ انجلترا من خلال دراسة سـجلات الأديرة القديمة، وقد ظهر مؤلفه عام ١٦٥٥م. فى هذه الفترة ألهم جدل الكنيسة البروتستانتية الذى زلزل انجلتـرا فى خلال عـهد الأسـقف الطاغيـة «لود – Laud»، الانغماس فى الماضى المظلم لتوضيـح ظروف أصول الكنيسة الإنجليزية. ولإحدى هذه الدراسات، «التاريخ الكنسى لبريطانيا العظيمة» الذى كتبه «ريتشارد بـروتون»، فصل بعنوان: «مثبت ها هنا بكل أنـواع الشهادات والسلطات، أن يوسف الرامـى جاء إلى بريطانـيا مع رفـاق مـقدسـين آخـريـن، ووعظ وعـاش ومـــات ودفن فى المكان الذى يســمى الآن جلاسـتنبـرى، وفى «سمـر ستشـاير – Summer setshire»، بلا أدنى شك.

لو أن بروتون كـان مصـدقًـا، فإن مـعـاصره «توم فـولر – Tom Fuller» المحتـرم كان مـقدسًا ومـحتـرمًا لدى كل من البـيوريتـانيين والملكيسين، وقد كتب بـعضًا من أشـهر كـتابات القـرن السابع عـشر النثرية، وبالرغم من كونه أكثر تشـككًا، لم يستطع أن ينكر مادة قصة يوسف فى كـتابـه «تاريخ الكنيـسة الإنجليـزية – Church History of Britain» الذى كتبـه فى عام ١٦٣٥م، ويعترف فيه بأن «خـميرة الدير قد ضخمت الظروف وأخـرجتها من نصابها». وباعتـرافه بعدم وجود مادة مؤكدة عن القـرن الأول، امتنع فولر عما قد يكون قاعدة مـتبعة لعلماء تاريخ كثيرين أقل منه أمانة، فقال: «بما أنى لا أجد الكثير فلن أزيف؛ فمن الأفضل أن أمضى وقتى صامتًا على أن أكون كاذبًا».

ومن الواضح أنه فى هذا الوقت – بغض النظر عن أى أدلة تضاف مع أو ضد يوسف الرامى وعلاقته ببـريطانيا – فلن يستطيع أحد انتزاع يوسف من التراث الإنجليزى. فربما يكـون مكانه حقًا هناك؛ حيث إنه عندما يبـحث العلم الحديث أصـول ومادة الأسطورة، عادة مـا تؤكد الحقائق المتاحة الأسطورة. لقد أثبتت الاكـتشافات الأثرية وجود بحيرة وقرية على طراز العصـر الحجرى فى جلاسـتنبرى. ويصورها الأثرى «جاكتـا هاوكس – Jacquetta Hawkes» بأسلوب يمـاثل تمامًا قـصة يوسف وكنيسته ذات الهيكل القشى فى المسـتنقع. و«قد اختار مؤسسو القرية أرض المستنقع كـأسلوب تأمينى يطلبه هذا العصر. . . واجـتثوا

نباتات الماء والصفصاف التى تعيق الرؤية، ثم عملوا بجد على بناء جزيرة صناعية على الأرض التى طهروها. . . وبنوا عليها ستين كوخًا مدورًا، بجدار من القش وأرض من الطمى المحروق وأسقف من الخوص المجدول. . . وتعج القرية نفسها بالحياة والنشاط داخل أسوارها الحامية - وهى نموذج مصغر للإنسانية المعزولة وسط المستنقعات».

وربما يرجع بقاء تقاليد جلاستنبرى القديمة إلى عزلتها ومكانها المحمى. ثم دمر حريق القرية فى تاريخ غير معلوم، ولكن هذا حول الطمى إلى فخار غطى أكواخ القش وحماها. وحين كشف عنها بعد ألفى عام كانت ما زالت تحمل بصمة الخوص المجدول والأماليد المجدولة. كما وجدوا أعمالاً حجرية من النوع الذى عُثر عليه فى سوريا حول جلاستنبرى، مما يوحى بعلاقة ما بين جلاستنبرى وموطن يوسف الأصلى.

ويقول البروفيسور «فريمان - Freeman»، وهو حجة فى التاريخ البريطانى: «لا نحتاج لأن نصدق أن أساطير جلاستنبرى حقيقة، ولكن مجرد وجود هذه الأساطير حقيقة كبيرة».

***

الفصل الثالث

الحملات الصليبية

كان الدور الرئيسي للحملات الصليبية هو، من وجهة نظر القس توم فولر كما قال في كتاب «تاريخ الحروب المقدسة» الذى كتبه فى ١٦٣٩م، أن تكون «البالوعة التى تشفط كل النزاعات من المسيحية». وباعترافه فإن وجهة نظره پروتستانتية، ولكنها يمكن أن تصمد أمام أى تحدٍّ جدى. فى البداية حفز الحملات الصليبية التعطش للمكسب والمجد، والثأر من الملحدين باسم الدين. لقد اتجه الصليبيون الأوائل شرقًا متهللين لإراقة الدماء، وحشيين فى قسوتهم، أبرياء من العلم بالحدود الجغرافية أو الاستراتيجيات أو الإمدادات، دونما أى خطة للدعاية سوى الذهاب إلى القدس وانتزاعها من الأتراك(*). وقد تحقق لهم ذلك بأسلوب مجنون، فقط بفضل انقسام العدو على نفسه. ومنذ ذلك الحين هزمهم هم أيضًا الشقاق المتبادل، لقد كانوا يفتقرون حتى لأدنى شعور بالولاء الذى كان يجب أن يربط الحلفاء والذى كان يجب أن يمليه شعور الحفاظ على الذات. وعلى مدى المائتى عام التالية حاولوا دون جدوى استعادة انتصار الحملة الأولى.

ولم يتعلموا شيئًا من فشلهم. ومثل القوارض الآدمية، كان كل جيل من الصليبيين يلقى بنفسه فى أثر آبائه المهلك. **وأصبحت فلسطين نفسها - أرض المعركة والغنيمة - الوطن الثانى والمقبرة لنصف أسر أوروپا.**

(*) المقصود المسلمون.

وكان واعظ الحملة الصليبية الثانية - القديس برنارد أوف كلايرفو - يفتخر بأنه لم يترك سوى رجل واحد لتعزية كل سبع أرامل. ولكن ما جعل هذه الأرض البعيدة شديدة الألفة لم يكن عدد من ذهبوا في أي مرة بقدر ما كان حقيقة أنهم دأبوا على الذهاب لقرنين، فكان من المعتاد أن يحارب أو يستقر أو حتى يموت ثلاثة أو أربعة أجيال من أسرة واحدة في فلسطين.

وفي انجلترا، تشير التماثيل الحجرية المحفورة لإيرلات أكسفورد الذين شاركوا في الحملات الصليبية، والمدفونين في كنيسة هرفورد. فتمثال الإيرل الأول - ألبريكس دوفير الملقب «بالصارم» - في كامل زيه الحربي بالدروع المرنة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ومغطى بالرداء الكهنوتي الأبيض، وسيفه في جنبه وأقدامه المهمزة مرتكزة على أسد يقبع في خلوده الحجري على مقبرة تحمل تاريخ ١١٩٤م، وبالقرب منه الإيرل الثاني الذي توفي في ١٢١٥م، والإيرل الثالث الذي توفي في ١٢٢١م. . . . والإيرل الخامس الذي توفي في ١٢٩٥م، وكلهم أرجلهم متصالبة ككل الصليبيين. وبالمثل في كنيسة ألدورث في بركشير، توجد خمسة تماثيل متصالبة الأرجل لعائلة «دولابش» وتوجد مثل هذه التماثيل في كل بلدة في انجلترا، وبعضهم قدمه مرتكزة على حيوان، وبعضهم يده على سيفه نصف المشدود من جرابه، وبعضهم يده في وضع التضرع إلى الله، وبعضهم يحمل درعه صليب الهيكل، وبعضهم بجوارهم زوجاتهم متصالبات الأرجل،

وثيابهم مـرتبة للأبد فى ثنيـات مستـقيمـة، وترمز المحـارات وصلبان القديس چورچ فى شعار النبالة للعديد من الأسر للحملات الصليبية، وإلى يومنا هذا توجد حانات تحمل شعار رأس العربى.

ولكن يبدو أن الحملات الصليبية لم تتغلغل لدرجة كبيرة فى الوعى الإنجليزى إلى الحـد الذى كان متوقـعًا، فلم تكن مصـدر الإلهام لأثر تاريخى قومى، ولم ينبغ أحد العـمالقة فى القرن التاسع عـشر ليقدم للحمـلات الصليبـية مـا قدمه سـتبس أو فـرويد أو فريمـان لمجالات تخصصـاتهم، وتم إنجاز كل الدراسات الأساسية بواسطة الفـرنسيين، ولـم ينتج عن هذه المغامرات فى الشـرق أى نمط أدبى بخلاف القصص الرومانسـية السـاذجة التى تمجـد الملك ريتشـارد وهو يتعشـى بالعرب المشوييـن، وإنقاذه بواسطة الشـاعر بلوندل. وفى واقع الأمـر، يعرف الإنجليـز الحمـلات الصليـبيـة من طلاسم (سكوت) الوردية المفـعمـة بالتفاؤل، والتى تعد العمل الأدبى الوحيد الجدير بالذكر الذى نتج عن هذه الحملات فى الأدب الإنجليزى.

ويرجع هذا الافـتقار جـزئيًا إلى أن نشـاط الإنجليز الحـقيـقى كان مستترًا فى عـهد الحملات الصليبية بالصراع فى انجلتـرا بين الساكسون والنورمانديين وبين النبلاء والملوك وبين التاج والكنيسة.

وتنفـرد شخصـية ريتـشارد بأغلب تراث وأمـجاد الصلـيبيـين فى انجلترا: ولكن حـتى هو لـم يكن إنجليزيًا تمامًا، فملكتـه لم تطأ انجلترا

قط، وهو نفسه لم يقض أكثر من سبعة أشهر من فترة حكمه طوال اثنى عشر عامًا فى انجلترا التى كان يرتدى تاجها. لقد كانت فلسطين هى التى جعلت منه بطلاً إنجليزيًا. فماذا كانت تعرف عنه انجلترا كملك سوى أنه عملاق أحمر الشعر ذو سيف مقعقع عصبى المزاج ككل الأنچيڤيين (Angevins) حلَّ على انجلترا فقط ليتوج ويجمع فى خزانته كل بنس لتمويل الحملة الصليبية؟ وقد رحل أسرع من أن تعيه انجلترا إلا كموجة مد من الضرائب غمرتهم ثم انحسرت لتعود مجددًا حين كان يجب افتداؤه من سجن الإمبراطور الذى سلمه إليه ليوپولد ملك النمسا.

وبطريقة ما مُحيت هذه الذكريات بروايات أمجاده وشجاعته وبأسه فى فلسطين؛ حيث شق طريقه بين صفوف العرب بشجاعته حاملاً سيفه فى يد وبلطة فى اليد الأخرى. وفى فلسطين صار ريتشارد قلب الأسد، وتحول من ابن أكويتين وأنجو المشاكس الشجاع عديم الضمير، إلى أول ملوك انجلترا الأبطال منذ الملك ألفرد.

ولم يكن بالطبع الملك الوحيد من ملوك انجلترا الذى ذهب إلى فلسطين حاجًا أو محاربًا فى الحملات الصليبية. فقد خلا العرش مرتين بينما كان ولى العهد المستحق له فى الأراضى المقدسة. فعم ريتشارد الأكبر - روبرت كرثوز دوق نورماندى وأكبر أبناء ويليام الفاتح - خسر تاج انجلترا أمام أخيه الأصغر هنرى الأول بينما كان

روبرت فى الحملة الصليبية الأولى. وأحـد أحفاد أخى ريتشارد إدوارد لونجشانكس كان أفضل حظًا، فبينما كان متغيبًا فى فلسطين على رأس الحملة الصليبية السابعـة مات أبوه الملك، وتمكن هو منَ اعتلاء العرش حـين عـاد وظل فى الحكم عـشـرين عـامًـا تحت لقب إدوارد الأول الإنجليزى الجستونى.

لقد أقسم كلٌ من أبى ريتشارد أو هنرى الثانى، وأخيه چون، وابن چون أو هنرى الثالث، على الذهـاب فى الحملات الصليبـية، ولكن الأول والثانى كانا مشغولين تمامًا بالحرب فى انجلترا، بينما كان الثالث نافرًا تمامًا من أى حرب، مما جعله لا يبر بقسمه. وناب عنهم آخرون من العـائلة المالكة، وأبلى ويليام لـونجسورد ابن الأخ غـير الشـرعى لريتشارد قلب الأسد بلاءً حسنًا فى حملات القديس لويس الصليبية، كمـا أبلى أيضًـا ريتشـارد إيرل كورنوال وشـقيق هنرى الثـالث بلاءً حسنًا. وربمـا كان أعظم شخـصيـة إنجليزية فى القـرن الثالث عـشر سيمون دو مونتفـورت، الذى قاد ثورة البارونات ضد هنرى الثالث. فقد قـاد حملة صليبـية إلى فلسطين فى بداية حياته. كـما ذهب إلى هناك عدد لا يـحصى من النبـلاء مصحـوبين برفقـتهم من الفـرسان وحاملى الدروع والجنود المشـاة، كما اصطحب بعضـهم زوجاتهم فى رحلة السعى الأبدى العـقيم وراء «حقـهم فى الإرث» و«أرض الرب» التى كانوا يحملون لقبها اسمًا فقط.

وربما لم يكن للكتاب المقدس أن يمد جذوره فى الجسد الإنجليزى، لو لم تُرق دماء إنجليزية فى أرض الكتاب المقدس على مر سنوات طويلة.

لقد أغفل نصيب الإنجليز فى الحملة الصليبية الأولى، ولكن تبعًا لشاهد العيان المؤرخ رايمون أف أرجيولرز، فقد لعب أسطول إنجليزى مكون من ثلاثين سفينة يقودها بحّارة إنجليز دورًا حيويًا فى دعم الصليبيين من البحر، إلى أن كسبوا قاعدتهم الأولى باحتلال إنطاكية. وبرغم أن ويليام أف مالمسبرى الذى كتب بعد قرن يقول إنه «لم يصل سوى همس خافت عن شئون آسيوية إلى آذان قاطنى المحيط البريطانى» فيبدو أن الهمسات كانت أعلى مما كان يتوقع. وسواء كانت القوة الإنجليزية البحرية مدفوعة بالحماس للحرب المقدسة، أو كانت ببساطة مجموعة من الساكسون المخلوعين الهاربين من أمام ويليام الفاتح، فإنها على أى حال قد جُمّعت فى انجلترا، وأبحرت تحت قيادة إنجليزية، واستولت على سلوسيا - ميناء إنطاكية - حتى وصل جيش الصليبيين الرئيسى من القسطنطينية برًا. وإلى أن أُخضعت إنطاكية تعاونت السفن الإنجليزية مع أهالى جنوا وصدوا هجمات أسطول العرب وأبقوا خطوط الإمداد من قبرص مفتوحة. وحين كان الصليبيون مستعدين للزحف على القدس، كان الإنجليز قد خسروا أغلب سفن أسطولهم عدا تسع أو عشر سفن، فأحرقوا السفن المتبقية وانضموا للقوات البرية، ومنذ ذلك الحين اختفوا من التاريخ. وربما

كان مثلهم الذى تجـاهله الجميع فى تاريخ هذه الفتـرة الزمنية هو الذى جـعل ريتشـارد بعـد مائة عـام يقرر الذهـاب بحرًا بدلاً من أن يتـبع الزحف البرى المهلك الذى اتبعه آباؤه. وإن كـان الأمر هكذا، فهؤلاء الرجال المجهولون هم الذين أسهـموا برغم عدم تكريمهم أو تخليدهم فى تنمية القوة البحرية التى جعلت من انجلترا إمبراطورية.

وفى هذه الأثناء زحف روبرت كـرثوز مع الجيش البـرى. وبالرغم من كونه نورماندى الميلاد واللقب، كان مـا يمكن أن نسميه بأول جيل من الإنجليز لكونـه عضوًا فى العـائلة المالكة التى تولت مقـاليد الحكم حديثًا. وفى الواقع، فحين مات كان ويليام مالمسبرى يتحدث عنه على أنه «روبرت الإنجليزى» وكـان أتباعه فى الحمـلات الصليبية غـالبًا من النورمانديين والبـريطانيين القدمـاء والأنجيفيـين، أما الرجال مجـهولو الأسمـاء من انجلترا الذين تبـعوه فكانوا غـالبًا جنود مـشاة، ومن بين الثلاثمائة وستـين فارسًا المعروفين فى جيشه كـان اللوردات الساكسون المهزومـون أو الأنجلونورمانديون الذين على خـلاف مع الملك، يعدون على أصابع اليد الواحدة.

ولكن إن لم يكن الإنجليز قـد ذهبوا مع روبرت، فإنهم قـد دفعوا لويلى نيلى لنصيبه فى الحملة. وقد رهن دوقية نورماندى لأخيه الكريه ويليام روفوس لخمسة أعوام فى مقـابل عشرة آلاف مارك ليجهز قوة. وكى يدبر روفوس هذا المبلغ الكبير، فرض ضرائب ثقيلة على كل فرد فى انجلترا إلى أن جأر جميع من بالبلاد.

ولكنها لم تكن صفقة سيئة بالكامل، حيث إن روبرت الذى لم يكن سوى شخص تافه يسيّره أبوه وإخوته فى بلده، صار بطلاً فى فلسطين حيث قلب شبه الهزيمة إلى انتصار فى إنطاكية، وذبح بنفسه «الأسد الأحمر» كيزيل أرسلان القائد التركى، وبالرغم من بُعد صفاته عن نمط المحارب التقليدى، حيث كان قصيراً وبدينًا ومبتسمًا، إلا أنه تبعًا لروايات التاريخ المعاصر قد شق جنديًا تركيًا نصفين من قمة رأسه حتى صدره بضربة واحدة من سيفه! وقد عُرف بين الجميع بشجاعته، وكرمه فى اقتسام الطعام والسلاح والمطية مع إخوانه الصليبيين فى وقت المجاعة والإملاق. ويبدو أنه كان بالفعل سخيًا أكثر مما ينبغى فى هذه الأوقات العصيبة حتى إنه لم يستطع أن يدير دوقيته بشكل فعّال، فكانوا إذا أتوه بمجرم باك ليقيم عليه العدالة يبكى معه ويطلق سراحه دون أن يحاكمه. ولم يسطع روبرت بالمجد ولو لفترة قصيرة إلا فى فلسطين، ثم عاد إلى وطنه ليكون ضحية أحد أفراد أسرته الأكثر قسوة مجددًا.

ووقعت بيت المقدس فى يد الصليبيين فى ١٠٩٩م، وحيث إن روبرت كان ابن الملك الوحيد بينهم فقد عرض عليه تاجها، ولكنه رفض حيث كان لا يزال آملاً فى تاج انجلترا، وغادر فلسطين إلى وطنه فى ١١٠٠م، ولكن بينما كان فى طريقه إلى انجلترا، أطلق مجهول السهم الذى اغتال روفوس فى الغابة الجديدة، وخلّص انجلترا من حاكم لم يُذكر أبدًا بكلمة طيبة فى يوم ما، واعتلى هنرى الأول

العــرش خلفًــا لروفــوس، بينمــا كــان روبرت لا يــزال فى الطريق، وتخلص هنرى من مطالبة أخــيه الكبيــر بالعرش بسجنه مدى الحــياة، ويقــول المؤرخون: إنه عــزاه عن العرش المفــقود بإعطائه بعض ثــياب الملك المستغنى عنها.

ويقال إن هناك مجموعة إنجليزية أخرى شاركت فى الحملة الصليبية الأولى، بالرغم من أن ذلك كان فى ظروف غامضة. يقول أوديريكس فيــتاليس، المؤرخ الذى لا يُقدر مــخطوطه عن تلك الفتــرة بثمن: إن إدجار أثلينج الذى يعد آخر أبناء العائلة المالكة السكسونية قد ذهب إلى اللاذقية بسوريا، والتى كانت تخضع للحكم البيزنطى على رأس قرابة العشرين ألف حاج من انجلترا وجزر أخرى فى المحيط، وأقنع الجموع بتنصيب صــديقه الدوق روبرت قائدًا لهم. ولم يخبــرنا أحد بمن كانوا هؤلاء الحــجاج أو بدورهم فى تطوير المـملكة اللاتينية ولا بما آل إليــه مصيرهم.

وقد حظى روبرت المسكين الذى كان دائمًا ما يضيع منه التاج بمجد وجيز بعد وفــاته فى المسرحية الإنجليزية الوحيدة المؤلفــة حول موضوع الحملات الصليبية، وهى مسرحية توماس هايوود «صبيان لندن الأربعة» التى تعد مسرحــية ثائرة متعصبة، وقد عــرضت عدة مرات فى حوالى عام ١٦٠٠م للتــرفيه عن الجمــهور الإليزابيثى فى مــسرح «الرد بل». ويظهر فيها «جودفرى أف بوليون» وشــخصيات عامة أخرى من الحملة

الصليبية الأولى بصحبة رفقة من الفرسان والسيدات ورجال العصابات والتنانين والنساك والصبيان الخياليين، وكلهم متنكرون كأشخاص آخرين في إطار من الأحداث الخيالية. وفي ذروة الأحداث أمام المدينة المقدسة يلقى روبرت الإنجليزي بكلمات تحمل كمًّا من المفارقات التاريخية كما لو كان جنديًا صليبيًا يظهر على خشبة المسرح حاملاً بندقية:

انظروا إلى جدران بيت المقدس العالية

التي حطمها تيتس وڤسپاسيان ذات يوم

فمن خلف هذه الأبراج رأى اليهود القدماء

عوالم من الناس محتشدين على هذه السهول

يا أيها الأمراء مَنْ منكم عيونه جافة بما يكفي

لينظر لهذا المعبد الذي صار مدمرًا؟

وهناك كان بيت اليهودية العظيم . . .

وهناك كانت سفينة نوح وخبز التقدمة وعصا هارون

وقدس الأقداس والملائكة

والآن في هذا المكان المقدس، حيث كان الرب بنفسه حاضرًا، يقطن الكفرة

وتصعد آلهة مزيفة، ويحمل كل معبد أصنامًا

فمَنْ يستطيع أن يرى كل ذلك ويكبح دموعه؟

ولا يوجد ذكر هنا للضريح المقدس أو الصليب، ولكن بدلاً من ذلك، فإن الرموز المقدسة هى «بيت اليهودية» والمعبد وسفينة نوح، فتحت تأثير الكتاب المقدس الإنجليزى، يتم التفكير فى القدس من خلال العهد القديم وليس العهد الجديد. ولكننا يجب أن نتذكر أن هايوود يبعد عن الحملة الصليبية الأولى فى الزمن بعدنا نحن عن هايوود. وفى الواقع لقد كان الصليبيون بعيدين عن التفكير فى بيت اليهودية. وبالرغم من تسلحهم بسيف المكابيين، كما قال «البابا أوربان – Pope Urban » فقد صب الصليبيون أوائل ضرباتهم على شعب المكابيين (اليهود) قبل أن يغادروا أوروبا، وقد استعملوا السيف مع كل مجتمع يهودى فى طريقهم، بواسطة محاربيهم المسيحيين الذين لم يستطيعوا الانتظار إلى نهاية الرحلة كى يغمسوا أيديهم فى الدماء. وقد كانت هذه المذابح الجماعية بشكل جزئى طعنات متوقعة فى شخص اليهود الذين كانوا أكثر الضحايا ملاءمة، خاصة مع انتشار شائعة أنهم هم مَن أوعز للأتراك بشكل شيطانى باغتيال المسيحيين فى الأراضى المقدسة، وقد كانت هذه المذابح المنظمة تعد جزئيًا أيضًا فرصة للنهب ودافعًا قويًا عند الصليبيين.

ولم تكن الكراهية الشعبية لليهود عاطفة نشطة حتى أشعلتها

الحـروب المقدسـة. وقد كـان أحد العـناصر هو كـره رجل العصـور الوسطى وخوفه الخـرافى من كل مَنْ يخالف العقيدة الكنسـية. وكان الشعور الطبيعى بالعداء لمن ندين له بالمال عنصراً آخر. فقد كان اليهود يمـارسون الربا فى العـصور الوسـطى؛ حيث إن النظام الاجـتمـاعى استبعدهم من أشكال الحيـاة الأخرى، ولأن قانونهم كان يحرم عليهم الربا فيمـا بينهم، بينما يسمح به تجاه الغيـر، ولأن الربا كان ضرورياً للمجتـمع، بالرغم من تحريم القانون المسيـحى له. وفى نهاية الأمر، ومع ارتفاع شأن الرأسـمالية والاقتصاد الـقائم على المال، أصبح الربا أكثر ضرورة، وقد خفت حدة التحـفظ المسيحى للمستوى الذى سمح حتى للمسيحيين أنفسهم بممارسة الربا. ولكنه خلال العصور الوسطى كان مـقصوراً أسـاسًا على اليهـود، ومن خلالهم أمدوا التـاج بمصدر مكسب للعائد. ولم يحـجم الملوك فى مـقاسـمـة اليهـود فى الأرباح إلا الاعتـبارات العلميـة التى ترفض حلب البقـرة حتى يجف ضرعـها. فنظرياً كـان لهم حق الملكية، وإن كـان هذا عـملياً لا يعنـى شيـئًا، حـيث لم يكن مسموحًـا لليهودى بمقاضاة مسـيحى، ولذا فقد كان مركزه يعـتمد بالكامل على رضا الحاكم وحمايته.

وكلما شجع الحاكم على الربا، كلما كـره الشعب اليهود. وخلال فتـرة الحمـلات الصليبـية، عـرفوا أن العنف الذى يمـارس تحت لواء الصليب كـان أسلوبًا سهـلاً لمحو الديون واقـتناص ذهب اليـهود دون

أدنى مساءلة. وفى خلال الحملة الصليبية الثانية فى ١١٤٦م، كان الوعّاظ ينددون بالجنس اليهودى عمومًا، وسُجل أول اتهام قتل دينى ضد يهود أكسفورد فى ١١٤٤م. وفى أثناء الحملة الصليبية الثالثة فى ١١٩٠م، كان الربط بين الحملات الصليبية والمذابح المنظمة تلقائيًا، وبدأ القتل عقب تتويج ريتشارد، وإن كان ذلك دون أمر منه. وما أن بدأ القتل حتى انتشر فى موجات من لندن إلى المدن التى يعيش فيها اليهود، إلى أن بلغت ذروتها فى يورك، حيث كان اليهود الوحيدون الذين هربوا من على بُعد من المذبحة الغوغاء، هم الذين ذبحوا زوجاتهم وأولادهم، ثم قتلوا أنفسهم بأيديهم. وتبعًا لكل الروايات، فقد كان قادة هذه الهجمات ذات الأثر القوى والتى يصفها المؤرخون بدقة وبرعب، هم أعضاء الحملات الصليبية الذين كانوا يستعدون للرحيل، والرهبان الذين كانوا يحرضون العامة ضد أعداء المسيح. وقد عاقب قساوسة ريتشارد هؤلاء الجناة، وبرغم توقف الاعتداءات، إلا أن ذلك غذى مشاعر العداء ضد اليهود. وبالتالى، فبعد ذلك بقرن، فضل ملك صليبى آخر وهو إدوارد الأول أخذ كل شيء دفعة واحدة بدلاً عن الاستمرار فى عصر المصدر الذى أوشك أن ينضب، فطرد اليهود من انجلترا وحجز على كل ممتلكاتهم التى خلفوها لصالح التاج.

وبطريقة ما استطاع رجال العصور الوسطى أن يفصلوا فى عقولهم

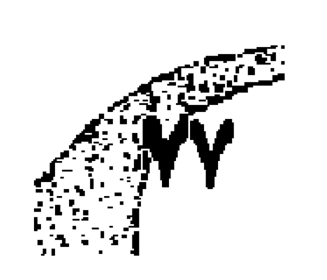
بين اليهـود المعاصرين والعـبرانيين الـقدماء بالكامل. وكـان النموذج الأصلي للمحـارب الذى تمثله معجـبو ريتشـارد قلب الأسد وروبرت بروس هو «يهوذا المكابى- Judas Maccabaeus». وفي الواقع، فـقد كانت شخصيات القادة العظماء للعبرانيين وملوكهم وليس أنبيائهم هى التى تروق للعقلـية الرجولية فى عـصر الفروسـية، ومن بين العظماء التسـعة الذين تحفـر تماثيلهم على أبواب الكنائس وتنقش على المشـغولات كان يوجد ثلاثة وثنيين، وثلاثة يهود، وثلاثة مـسيحيين، وكان يوشع وداود ويهوذا المكابى، وليس موسـى هم ممثلى اليهود. وربما كان ريتشارد مكابيّا فى شجاعـته وقوته واستراتيجـيته، ولكن ليس فى دوافعه. فـقد كان يحـارب من أجل التـسليـة وليس مـن أجل الحـرية، على الأقل فى فلسطين. وفى باقى الأوقـات، أى حوالـى تسعـين بالمائة من حيـاته الناضجة كـان يمضى وقته فى محـاربة والده أو الملك الفرنسى أو أى منافس حربى آخر فى فرنسا، ولكن كل ذلك قد نُسى فى ظل الذكرى الساطعـة للحمـلات الصليبـية. والمتـفق عليه بالرغم من مـعارضـته للواقع، هو أن ريتشارد كان بمثابة الملك آرثر الثانى. وبالرغم من ذلك فـقد أمـد انجلترا بأسطورة وبمشـاعر تجـاه الأراضى المقدسـة كمـحل للأسطورة، حتى إنه فى عـصره ولعدة قـرون تالية كـان أى رجل إنجليزى يستطيع أن يـقول: «حين أمـوت وتشقون عن صـدرى ستجـدون فلسطين كامنة بداخلى»، وهو نفس ما قالته الملكة مارى عن كاليه.

ولا داعى للإطالة بشأن الحملة الصليـبية الثانية، فقـد كانت فاشلة

بشكل مشـين، وتبعًا لحـكم معاصـر، فبرغم أنهـا لم تحرر الأراضى المقدسـة، إلا أنها لم تكن تـعيسـة بشكل مطلق، حيث مـلأت الجنة بالشـهداء، وقـد انضم لها القليـل من الإنجليز، حـيث كان أغلبـهم منشغلاً فى حرب السـبعة عشر عامًا بين ماتيلدا وستـيفن وأنصارهما. وحين اعتلى خليـفتهم، هنرى أوفانجو العرش فى ١١٥٢م اسـتغرقت مهمة تنظيـم المملكة غير المستقرة كل طاقاتـه. وأرضى ضميره بوضع صناديق الصدقات فى كل الكنائس للمساهمة فى مساعدة كهنة المعبد، ثم فرض ضـريبة لصالح حفظ أراضى أورشلـيم بلغت بنسين فى كل جنيه لأول سنة ثم بنس فى الجنيه لمدة أربع سنوات بعد ذلك.

وبعد قتل بكت فى ١١٧٠م، اضطر هنرى وبنفـسه إلى نذر حملة صليبيـة فى ثلاث سنوات كثمن للغـفران لنصيبه فى الـذنب فى أشهر جريمة فى القرن. ولكن المهمة الأكبـر وهى تعزيز سيادة انجلترا، بينما انجلترا تقلقهـا نزاعات الأسرة الحاكمـة فى فرنسا، جعلتـه يؤجل قيام الحملة من سنة لسنة. لقد أقسم قسمًـا صليبيًا، ولكن من المشكوك فيه أنه كان ينوى البـر به جديًا على الإطلاق؛ حـيث إن هنرى كان ملكًا جعل اهتمـامه الحقيقى منصبًـا على الوطن، وليس على مطاردة المجد فى الشرق.

وكان السبب المباشر للحملة الصليبية الثالثة هو استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس من الفرنجة فى ١١٨٧م. وقيل إن أوروبا ارتجت لهذه



الأخبار بأن المدينة المقدسة قد وقعت ثانية فى أيدى الكفار. وقد أشيع أن «الأب أربان الثانى-Pope Urban II» قد مات عقب سماع الخبر من الحزن. حتى هنرى تأثر بشدة بالخبر، وبدأ فى هذه المرة استعدادات نشطة للذهاب فى الحملة التى كان واعظها الأب الجديد جريجورى الثامن، وكان رد الفعل قويًا إلى الحد الذى جعل الملوك والنبلاء والفرسان يقسمون على الانضمام للحملة من كل حدب وصوب، حتى صار السؤال ليس هو مَن سينضم وإنما مَن لم ينضم بعد؟ وأصبح من المعتاد إرسال المغزل والصوف كرمز لمشاركة المرأة. وقد ورد كل ذلك فى كتاب دوفينسوف الذى يعد شهادة شاهد عيان مثله مثل تاريخ بوهادن، وهما أقيم كتابين مقروءين فى سجلات الحملة الصليبية الثالثة، وحيث إن الباحثين الجدد اكتشفوا عدم وجود شخص اسمه دوفينسوف، أو أنه إن وجد فهو لم يكن كاتب الكتاب، فسوف نشير إلى هذا الكتاب من الآن فصاعدًا بالحروف الأولى «دوف».

وكانت إحدى نتائج مصير أورشليم البعيدة هى ضريبة الدخل الأولى فى انجلترا، والتى فرضها هنرى الثانى لتوفير تكلفة الحملة. وكان الفرسان الصليبيون يعفون، أما جميع من دونهم فكان عليهم دفع عشر كل الإيجارات والمنقولات. وكان على كل رجل أن يقدر دخله، ولكن إن شك فى أنه يبخس دخله كان محلفون من كنيسته يقدرون دخله الحقيقى، وكانت هذه الضريبة تسمى «عشر صلاح الدين». وكان روجر أوف ويندوفر يقول: إنه بالرغم من هدفها السامى فإنها

كانت تعتبر ابتزازًا صارخًا يغطى السلب باسم الإحسان، وقد أفزع هذا رجال الكنيسة كما أفزع العامة، فما كانت الضرائب فى يوم ما محبوبة.

وبرغم أهمية السرعة، فقد أخرت النزاعات العائلية التى لا تنتهى بين هنرى وأبنائه الثائرين والملك الفرنسى فيليب أغسطس الذين كانوا دائمًا ما يعقدون اتحادات ويفضونها مع بعضهم البعض. وفى وسط كل هذه النزاعات مات هنرى عن ستة وخمسين عامًا بعد أن جرده ابنه من فرسه فى أرض المعركة، مات هنرى فى يوليو من عام ١١٨٩م. وكان ريتشارد الثائر هو الملك، وكان قد انضم للحملات الصليبية قبل ذلك بعامين قبل أسبوعين من سقوط أورشليم مجددًا، والآن لم يكن يمكن تأخيره أكثر من ذلك. وعلى عكس أبيه، لم يكن مهتمًا بأعباء الملك أو بمملكة انجلترا إلا بقدر ما كانت تعطيه فرصة ليمارس هوايته فى الحرب والمغامرة والمجد. وقد قدمت الحملات الصليبية لريتشارد كل هذا، مع أكبر رمز لتحدى الفروسية، وعدو مشهور وشجاع، وخلاص لروحه. وأسرع إلى انجلترا ليتوج وينظم مجلس وصاية على العرش لفترة غيابه، وفوق كل هذا ليملأ خزانته، وفى طقوس غير مسبوقة فى فرض الضرائب، جبا الأموال بكل وسيلة معروفة، وغير معروفة. وطرد وزراء والده وباع مناصب الكنيسة الكبرى للعامة، وباع كل منصب مطلوب، وكل قصر كان موضعًا للنزاع، وكل إقطاعية ملك للتاج كان يجد لها مطالبًا غنيًا. بالنسبة له، كان كل شيء

معروضًا للبيع - السلطات والألقاب كلقب اللورد والإيرل والشريف والقصور والبلدان، وما شابه. وجمع الغرامات بسبب وبدون سبب من كل من لم يكن يريد خدمة ولا يحتاج لشراء ملكية، وسجن آخرين وفرض عليهم شراء حريتهم، وطلب مقابل حماية الإقطاعيات ومقابل إسقاط عهودهم. وبينما كان بالدوين أسقف كانتربرى ورئيس شمامسته الذى لا يقدر بثمن، جيرالديس كامبرنسيس، يجوبان انجلترا للوعظ للحملة ولجمع المتطوعين، كان وزراء ريتشارد أكثر انشغالاً بجمع الغرامات والرشاوى والهدايا. وحين قيل للملك: إن أساليبه مثار تساؤل، ضحك وقال: «سأبيع لندن لو وجدت مشتريًا».

وفى خلال أربعة أشهر، مضى يعد كل بنس سهل الاقتناص أو يمكن جعله سهل الاقتناص، وأخذ معه الوزراء الأكثر قوة وولاءً بما فيهم الأسقف بالدوين، ورئيس وزراء والده، رانلف جلانفيل، واللذان استشهدا فى فلسطين، كما أخذ معه القاضى الجديد، هوبرت والتر. وحيث إن والده كان أكثر ذكاءً بكثير، فكان يخلف وراءه رجالاً يمكن الوثوق بهم للحفاظ على البلاد لحين عودته، ولكن ريتشارد لم يفكر بذلك أبدًا، وقد كان ذلك خطأ قاتلاً؛ حيث إنه لو لم تضطرب سنته الأخيرة فى فلسطين بتقارير عن اغتصاب چون للعرش، ولو لم يفت من عزيمته تردده بسبب عذاب عدم الاستقرار على رأى حيال البقاء أو العودة، لكان استولى على أورشليم فى نهاية الأمر.

ونظريًا فإن كل فارس انضم للصفوف كان مسئولاً عن إمداد نفسه وكل أتباعه من حملة الدروع والمشاة بكل لوازم الحرب. ولكن برغم عدم خبرة ريتشارد فى الحكم، إلا أنه لم يكن جنديًا غير مسئول، كل شرهه تجاه المال كان لغرض واحد، ألا وهو التأكد من قدرته على إمداد وإعداد القوة اللازمة بعيدًا عن الوطن والاحتفاظ بها على مدى عام أو أكثر بما يضمن له الانتصار على صلاح الدين كما كان يحلم. ومن غير الجائز أنه كان يريد التفاخر والاستعراض أكثر من فيليپ المغرور أو دوق النمسا ليوپولد، ولكن الأكثر أهمية هو أنه كان مصممًا على عدم تكرار كارثة التجارب البرية السابقة، والتى كانت تثير حفيظة العامة طوال سيرها، وكان لزامًا عليها أن تحارب طوال طريقها مما كان يجعلها تخسر الآلاف فى معارك سابقة للمعركة الأصلية فى فلسطين، بخلاف من تخسرهم من الجوع. ولم يكن ريتشارد يريد أن يتذوق طعم أرض الأتراك المحروقة بالذهاب برًا، ولكن الأمر كان يتطلب تمويلاً كبيرًا لنقل جيشه بالبحر وإطعامه طوال الرحلة.

وأمضى أكثر من عام فى فرنسا وسيسيليا يعين رجالاً أكثر وينتقى السفن ويحاول الوصول لاتفاق مع فيليپ لإنهاء عدم ثقتهما فى بعضهما البعض. وكان الملك الفرنسى يحقد على ريتشارد لانبهار الناس به أينما ذهب. من كان يملك إلا أن يعجب بالشخص الطويل الذى يصفه «دوف»: المتشح بالدرع الوردى الموشى بالنقوش الفضية، ويلبس قلنصوة قرمزية موشاة بالطيور الملونة والوحوش، فوق شعره

الأحمـر، وفى جانبه سيف ذو قـبضة ذهبـية فى جراب مشـغول من الذهب. وبالفعل، فقد كان صورة للفروسية وهو يثب منفرج الساقين فوق فـرسه الإسـبانى ذى الـلجام الذهبى والجلد الذهبى، ذى التـرتر القرمزى السرج المحلى بأسدين مذهبين.

وفى ربيع ١١٩١م اجتمع الجيش والأسطول بأكـمله، وبعد إضافة سفـن شراعيـة إلى الأسطول وإعـداد احتيـاجات عـامين من القـمح والشعير والنبيذ وآنية أخته الملكة جـوانا الذهبية، صار ريتشارد مستعداً للرحيل فى أبريل بعد أن رحل فيـليپ قبله فى مارس. وكان أسطولاً رهيبًا من ٢١٩ سفينة، أعظم وأقـوى بحرية رآها ذلك العصر. وأبحر الأسطول تحت الرايات الصليبية والأبواق تدوى فى البحر المتوسط تجاه فلسطين. وكان الأسطول يضم ٣٩ سفينة شراعـية حربية، وهى سفن طويلة رفيعة مقاتلة يحركهـا صفان من المجاديف، و٢٤ سفينة ضخمة ذات ثلاثة صـفوف من المجاديـف تحمل كل منهـما ٤٠ فـارسًا و٤٠ جنديًا من المشاة و٤٠ فـرسًا، وكل العدة اللازمة لهم وإمـدادات عام كامل للرجـال والخيول، و١٥٦ مركبًـا صغيرًا يحـمل كلٌ منها نصف حمـولة السفـينة الضخمـة. وأبحروا فى تشكيل خـابورى مكون من ثمانى سرايا كل منها مكون من ثلاث سفن فى الصف الأمامى وستين فى الصف الأخير، وكان الترتيب يسمح بسماع صياح رجل من سفينة لسفـينة وسماع الأبواق من سرية لأخـرى، وفى المقدمة كانت تبـحر جـوانا وبرنجاريا التى جلبـتهـا الملكة الأم إلى مـسيـينا لتتـزوج الملك

ريتشـــارد، ولكنه لم يحتـفل بالزواج حتى وصـــلا إلى قبــرص. وكان الملك فى اسنتثيا يحمى المؤخرة.

كم رجــلاً أبحر مع ريتـشارد فى هذه المغـامرة الكبـيرة المأسـاوية؟ يتجاهل مؤرخو العصور الوسطى الأرقام، ويتحدثون عن أعداد غفيرة لا تعد، وعن أنه لم يكن هناك رجل مشــهور أو مؤثر غائب عن هذا الأسطول، ويذكر الـ «دوف» أن قوة ريتشــارد كانت مكونة من حوالى عشرة آلاف رجل عند الاسـتيلاء على مسيـنا، ويناسب هذا العدد ما يستــلزمه مائتــى سفينة. وبــالإضافة لذلــك، سافر الأسـقف بالدوين مستــقلاً فى قوة صغـيرة مكونة من مائتى فـارس وثلاثمائة جندى من المشـــاة، وعدد لا حـصــر له من البـحارة الإنجليــز، التـحق بأسطول نورسمين وفلمينج، بإجــمالى اثنى عشر ألفًا طبقًا للتــقارير المعاصرة، ذهبوا لإغاثة المملكة اللاتينية فى ١١٨٩م قبل أن يتولى ريتشارد الملك.

ولا توجـد أى إحصـائيـات لعـدد سكان انجلتـرا فى هذا الوقت، ولكن خبراء الديموجرافيا يقدرون التعداد بحوالى مليونى شخص فى وقت حملة ريتشارد الصليبية، وأنه بين عشــرة إلى عشرين ألف إنجليزى قد شاركوا فى حملة ريتشارد الصليـبية أو الحملة الصليبية الـثالثة، وهذا يعنى أن رجلاً فى كل مـائة أو مـائتـين كان يذهــب إلى فلسطين. وقــد مدت كل قــرية فى انجلتــرا جيش ريتــشارد بالرجــال، ولم ترجع نسـبة كـثيـرة منهم إلى الوطن. ويذكر الـ «دوف» من بين ضحايا وخسائر جيوش هذه الحملة

فى شتـاءين فى فلسطين ستـة أساقفـة وباباوات، و١٢ مطرانًا، و٤٠ كنتًا، و٥٠٠ نبيل، وعدد كبير من رجال الدين، وعدد لا يحصى من الرجال. مات أغلبهم من المرض في المعـسكر الموبوء. كما أُسر ومات الكثيـر فى المعركة المخـيفة بعـد اقتناص ريتشارد لـلمدينة. ولا يمكن الوصول للعدد الحقـيقى الدقيق لجيوش الحملة المجمـعة، حيث كانت مـجمـوعات صليـبـية تصل من جـميـع جهـات أوروبا منذ سقـوط أورشليم، وكان البعض يبقى والبـعض يموت والبعض يعود للوطن، هذا بالإضافـة للمجـموعات المسـيحـية المحلية التى كـانت تنضم من إنطاكية والمدن الأخرى.

وربما كان أقرب التقديرات للحقيقة هو تقدير مؤرخ صلاح الدين، الذى قدر جيش الصليبيين بـخمسة آلاف فارس ومائة ألف جندى من المشاة. ونسـبة فارس إلى كل عشـرين جنديًا هى نسبة معـقولة، وإن كانت الخسارة الأكبر بين الجنود قد أخلت بهذه النسبة مما جعلها واحدًا لكل خمسة أو عشرة. والأكيـد أن أكثر من نصف الجيش الصليبى قد فنى حـين انتهت الحـملة الثالثـة. وفى المعركـة الأخيـرة قبل زحـيل ريتشارد عن بيت المقدس، حين طلب من كل رجل يستطيع القتال أن يتبعـه، لـم يستطع أن يجمع تبعًـا للـ «دوف» سوى خمسـمائة فارس وألفين من حملة الدروع الذين مـات لورداتهم. وحين عاد للوطن فى نهاية الأمر، كان ذلـك فى سفينة شراعية حربيـة واحدة لا يمكنها أن تحمل أكـثر من خمـسين رجلاً، وإن كان آخـرون قد سبـقوه. وتعد

محاولة تخمين نسبة من خدموا من الإنجليز فى فلسطين دربًا من الطيش، وكل ما يمكننا قوله هو أن حوالى واحد بالمائة ذهبوا ولم يعد سوى أقل من كسر.

وحين وصل ريتشارد إلى فلسطين فى يونيو، غرقت الحملة الصليبية فى حصار عديم الجدوى حول أسوار عكا قد بدأ قبل وصول الحملة الثالثة بعام. ولو أن حال المحاصرين كان سيئًا، فكذا كان حال من يحاصرونهم لعزلتهم عن سائر البلاد، ولغرقهم فى قذارة وأوبئة معسكر مزدحم، مما اضطرهم لأكل خيولهم التى ماتت متضورة جوعًا أو دفع ثروات من الذهب للحصول على جثة قط ميت. وكانوا فى موقف لا يحسدون عليه، غير قادرين على اقتحام المدينة ولا التخلى عن الحصار، فانتكسوا إلى حالة من البؤس الشديد الدائم ما زالت رائحتها تفوح فى كتب المؤرخين.

وحتى وصول الفرنسيين فى مارس من عام ١١٩١م تحت قيادة فيليب، حاملين الإمدادات الجديدة، لم يستطع أن يشحذ عزيمتهم إلا لفترة وجيزة عادت بعدها للخمود مجدداً. ولم ينشط المعسكر إلا مع وصول ريتشارد الذى توقف فى الطريق ليهزم قبرص ويأخذ منها الضرائب. ووصل ريتشارد إلى عكا فى يونيو، وفى غضون أربعة أسابيع سقطت المدينة التى صمدت لحصار ثلاث سنوات وتسع معارك ومائة مناوشة. ولم يكن هذا يعنى أن النصر كان ملكًا لريتشارد

وحده، ولكن لولا روحه العالية التى اعتصرت جهودهم لاقتحام الأسوار لما حقق النصر. وبرغم إضعاف الملاريا لريتشارد فى لحظة وصوله إلا أنه قاد المعركة من محفَّته، وحين تراجع الصليبيون أكثر من مرة تحت وطأة رماح وسهام الأتراك، أرعد صوته وهو يحفز الجنود فى محاولتهم الأخيرة الناجحة.

وتم ترتيب هدنة وتبادل للأسرى مع صلاح الدين، وكانت شروط الهدنة تُنفذ على مراحل ربع سنوية. ولكن حين دأب صلاح الدين على تأخير ما يخصه من الاتفاقية، ذبح ريتشارد، بلا أى تأنيب ضمير، أكثر من ألفى أسير مسلم، وأفزع هذا التصرف الوحشى حتى جنوده هو شخصيًا، كما أثار حنق وفزع المؤرخين لاحقًا، ومزقوا ما تبقى من سمعته كفارس منذ اكتشافهم أنه لم يكن على قدر الصورة الخيالية الرومانسية المرسومة له كفارس. وقال مؤلف الـ «دوف» الذى كان يعبد الملك ريتشارد: إنه كان فى شجاعة هكتور وعظمة أخيل وتحرر تيتس، ولباقة نستور وحكمة يليسيس، حتى إنه لم يكن يقل أبدًا عن الإسكندر ورولاند، ولكن المؤرخين لاحقًا صوروه كرجل بلا ضمير، وشرير بلا قلب. وغالبًا لم يكن رجلاً محبوبًا أو ودودًا ولا كان أيًا من البلانتاجنيتس. ولكنه بالتأكيد كان جنديًا وقائدًا عظيمًا. وكانت له تلك الصفة التى لا غنى عنها للقائد الناجح، التصميم على النجاح. ولأجل هذه الصفة كان يمكن التضحية بكل الصفات الأخرى بما فيها الرحمة والتواضع واللباقة.

ولكنه لم يأخذ بيت المقدس، ربما بسبب الصهاريج المسدودة، والحر والأوبئة، أو صعوبة تطبيق الخطط المستخدمة فى أراضى فرنسا الخصبة على تلال وصحارى فلسطين المعادية. وكل هذه الصعوبات واجهت الحملة الصليبية الأولى، ولكنهم لم يكن عليهم مواجهة قائد قوى مثل صلاح الدين الذى واجه ريتشارد. لقد كان صلاح الدين على أرض وطنه، وكان يستطيع استدعاء جنود من كل جوانب فلسطين، ولم يكن يضعفه أعداء فى مؤخرة. ولكن ما هزم ريتشارد حقّا كان تضارب أهداف ودوافع حلفائه، والذين شتت انتباههم نزاعاتهم الشخصية. وانسحب الملك الفرنسى، إما لغيرته من كونه فى ظل مجد ريتشارد أو لرغبته فى سبق ريتشارد إلى الوطن لاقتناص ممتلكاته الفرنسية. وعطل تصرفه هذا ريتشارد، وكما قال صلاح الدين: «كان ريتشارد معطلاً بملك فرنسا كما يتعطل القط من الشاكوش المربوط فى ذيله». وكانت فترة الخمسة عشر شهرًا منذ سقوط عكا فى يوليو ١١٩١م إلى رحيل ريتشارد فى أكتوبر ١١٩٢م كلها مكرسة لحماية الساحل من غارات العدو حتى يافا، مقر الزحف على بيت المقدس، والتى كان يمكن الوصول إليها فى فترات الراحة للتفاوض، وللحملات الجانبية على عسقلان وداروم، ولمحاولتين فاشلتين للاستيلاء على الأراضى المقدسة من التلال.

وكان الزحف جنوبًا عن طريق الساحل الرومانى القديم يعتمد على

لقاء أسطول الإمداد على فترات متقاربة، وخطط ريتشارد للمسيرة بعناية كبيرة. وكان الجيش المكون من خمسة فيالق من كهنة المعبد والبريطانيين القدماء والإنجيفيين والبويتفيين والنورمانديين والإنجليز وأخيرًا الهوسبيتاليين، وكان مقسمًا إلى ثلاث مجموعات بالطول. وتوغل المشاة لحماية الجيش ضد هجمات العدو القادم من التلال. وفى الوسط كان الخيالة، وبقرب البحر كان حملة الأمتعة المثقلين. وراية انجلترا الملكية على مدفع مغطى تجره أربعة خيول وتتحرك فى الوسط، ولكن الملك نفسه كان يتقدم ويتأخر على فرسه ليتفقد الترتيب ويحفظ النظام، وبسبب الحر كان يقتصر الزحف على الصباح الباكر ويقطع فقط ثمانية أو عشرة أميال فى اليوم ويستريح يومًا كاملاً من كل يومين. وفرضت هذه السرعة البطيئة حرارة أشهر الصيف وحالة الجند الضعيفة وفقد الدواب، واضطر نصف المشاة لحمل الأمتعة والخيام على ظهورهم، وكانوا يتبادلون الأدوار مع نصف المشاة المحارب من أجل الراحة وللحماية من سهام العدو الغزيرة، كان الصليبيون يرتدون غفارات ثقيلة من اللباد فوق قمصانهم المدرعة، ويروى بوهادن كيف كان إعجاب الأتراك بزحف الفرنجة تحت أشعة الشمس المحرقة، يسقط العديد منهم أمواتًا من الحر، بينما فقدَ البعض الآخر الوعى وتوجب نقلهم بحرًا، وفى نهاية كل أمسية كان مناديًا معينًا يقف فى وسط الجيش صارخًا «ساعدنا أيها الضريح المقدس»، وكان الجيش يردد هذه الصرخة خلفه ثلاثًا مادين أيديهم إلى السماء،

وهم يبكون بغـزارة، وتبعًا لـ «دوف» فـقد كانت هذه الـطقوس تريح جيش الصليبيين وتجدد نشاطه.

وبينما كانوا يزحفـون على طول الساحل كانوا يعلمون أن كل يوم في المسيـرة يقربهم من المعركـة المرتقبـة التي سيشنهـا صلاح الدين لو اعترض طريقهم إلى يافا، وكـان فرسان الصفوف الأولى في وحدات الجيش التركي تناوش الكتيبة البطيئة في جيش الصليبيين محاولة جرهم إلى المعركة، فقد كان أسلوب صلاح الدين هو تفريق جيش الصليبيين في السهل ليـخترقـه خيالتـه. وكان ريتشـارد مصرًا على البـقاء على تشكيل مـتماسك يحـمي عربات الإمـداد ويجبر الأتـراك على دخول المعـركة في عـقر دارهم. واشـتد تـوتر الأعصـاب في أثناء المسيـرة، واقتضى الأمر كمًا كبيرًا من الانضباط القوي الذي فرضه ريتشارد على قادة قواته لمنعهم من الاشتباك المبكر مع العدو.

وفي نهاية الأمر، جاءت اللحظة الحاسمة فوق يافا بأحد عشر ميلاً في مكان اسمه «أرسوف»، ولم يستطيعـوا السيطرة على أنفسهم حين خرج الهوسبيتاليون عن الصف وهاجموا الأتراك. ويقول الـ «دوف»: «إن الملك ريتشارد ما أن رأى جـيشه مشتبكًا حـتى أسرع على حصانه من بين صفـوف الهوسبيـتاليين، ووجه ضـربات ساحقة لمشـاة جيش الأتراك أدهشت العـدو فـتـفـرق جنـده عن ذات اليـمـين وعن ذات اليسار». ولكنهم أعادوا تنظيم صفـوفهم من أجل شن هجمة أخرى.

«وعلى امتـداد الأرض كان يمكن رؤية صفوف جـيش الأتراك المنظمة التى تضـم أعدادًا غـفيرة من حاملى الرايات والرجـال المدرعين، وكان يبدو أن عدد الجنود يتجاوز عشرين ألفًا . . . وانقضوا بسرعة الصقور حتى إن الـهواء تحول إلى الـلون الأسود من كثـرة الغبـار الذى أثارته الخيول وقـادتها يصيحون صـيحات الحرب ويدوون أبواقـها». وجُرح الملك ريتشـارد بواسطة رمح غُرس فى جـانبه الأيسر، ولكن صـفوف المشاة المتماسكة صمدت أمام الهجمة، وركعوا على ركبة واحدة وتقدم حاملو الرماح، ومن خلفهم المنجنيق يقذف بالسهام المشتعلة. وبالرغم من اشتعال الحرب طوال النهار، لم يستطع الأتراك أن يخترقوا صفوف الصليبـيين، وفى نهايـة الأمر تراجع الأتراك فوق أرض زلقـة؛ بسبب الدماء التى تغرقها، والجثث التى تكسوها.

وبعد أن التقى الجـيشان واختبـر كلٌ منهما قوة الآخر فى مـواجهة مفتـوحة، أدرك صلاح الدين أنه لا يستطيع إيقاف زحف الصليـبيين، ولكن بتراجـعه ومماطلته لكسب الـوقت استطاع أن يتفـوق عليهم فى القدرة على البـقاء، فسحب المواقع العـسكرية من القلاع إلى الجنوب إلى عسـقلان، فلم يكن يرغب فى تكرار موقـعة عكا، ولـم يبق على مواقع عـسكرية إلا فى داروم، الموقع الحصين الأخـير فى الطريق إلى مصر، ولكن ريتشارد أسقطها بحصارها لمدة أربعة أيام.

ومنذ تلك النقطة، وحين كـان يمكن أن يفلح جهد مـوحد حاسم

فى إسقاط أورشليم، بـدأت الحملة الصليبية فى التـفكك، ففى بادئ الأمر أصر الفرنسـيون على البقاء فى يافا لتقوية أسوارها ولـلاستمتاع برفاهية المدينة بعد صعوبات ميدان القتال. وحين ساد إصرار الآخرين وحاولوا اقتحـام أورشليم فى رأس السنة، تراجع دوق بورجاندى إلى قرب المدينة، وانسحب بالكامل فى نهاية الأمر. وتراجعت مجموعات حربية أخرى حتى عكا، وانضـم آخرون إلى الخائن كونراد فى صور. وقد نصح حتى الهوسـبيتاليون وكهان المعبد بعـدم اقتحام أورشليم كى لا يُتركوا وحدهم لقتال الأتراك المحـيطين بهم. وحتى ريتشارد نفسه، فقـد كان على عـجلة؛ بسبب عـذابه مما يمكن أن يفعلـه أخوه چون ومنافـسه فـيليب - الذى هجـر الحملة - من وراء ظهـره، وقد كـان يخشى ألا يجد مملكة يعود إليها بسبب الخيانة.

وبسبب هذا القـلق وبسبب صعـوبة توليد جـهد موحـد من جيش منقسم، أصبح ريتشارد مستعدًا لإنهاء الحرب عن طريق التفاوض على الهـدنة. واستـمرت جلسـات المفـاوضات خـلال الشتـاء والربيع فى ١١٩٢م، وتبادل الطرفـان المقتـرحات بشأن مَن يسـيطر على أورشليم والمدن السـاحلية الـعديدة وقـلاع الصليـبيـين، وكـان من ضـمن هذه الاقـتراحـات اقتـراح سـاذج مرير تقـدم به الملك ريتشارد، وهو أن يتـزوج صلاح الديـن شقيـقتـه جوانا ليـحكما أورشليم مـعًا. وأبقى صـلاح الدين الديپلوماسى المهـذب المحادثات مسـتمرة بلباقـته ومهـارته فى فن الحديث،

وبإرسال الهدايا باستمرار لريتشارد - فأرسل له حصانًا إسبانيًا رائعًا، كما أرسل له خيمة قرمزية وفواكه طازجة، وثلجًا باردًا مجلوبًا من الجبال، وسبعة جمال مزركشة، وطبيبًا ماهرًا يعالج الملك.

وفى هذه الأثناء جاءت تقارير الرسل عن سلب چون لمملكة الملك ريتشارد، مما حث الملك على العودة إلى انجلترا. وقرر أن يحاول مرة أخيرة السيطرة على أوشليم فى ١١٩٢م، ولكنه لم يجد تأييدًا موحدًا، وللأسف اضطر للاستسلام، وبينما كان يحيد عن الهدف الأعظم الذى بذل من أجله كل الجهد والدماء والكنوز، بلا جدوى، غطى ريتشارد وجهه بعباءته وصعد إلى قمة التل ليطل على أورشليم، وقال: «تباركت يا الله يا سيدى، أتضرع إليك ألا تجعلنى أرى مدينتك المقدسة التى لم أستطع أن أخلصها من أيدى أعدائك».

وصار عدم جدوى البقاء فى فلسطين جليًا. وأصبح ريتشارد مستعدًا للإبحار من عكا حين وصلت أنباء عن حصار العرب ليافا، حيث كانت توجد قوة صغيرة من الصليبيين معرضة لخطر الموت المحقق. كأنما الأقدار قد تحالفت لتمنع إذلال رجل شجاع؛ حيث إنه فى معركة يافا أظهر ريتشارد بطولة عسكرية وأحرز مجدًا تحاكى عنه كل الرجال، وخفتت ذكرى الضرائب التى فرضها فى ظل التقارير الواردة عن شجاعته وبطولاته، وحين قلبت اليانور السماء والأرض بعد ذلك بثلاثة أعوام لتأمين الفدية التى طلبها معتقل ريتشارد، تجاوب الإنجليز بتسليم كل كنوزهم طواعية لافتخارهم بريتشارد قلب الأسد.

وتحكى تقارير الـ «دوف» عن تخليص يافا فى تلك الليلة بكل مجد وفخر بالمعركة وببطولات الملك ريتشارد، وقد خالف ريتشارد كل النصائح التى قالت له أن يحذر قائلاً: طالما الله موجود سأكون معهم وأعينهم بكل ما أستطيع. لقد كان بالفعل على متن سفينة، فأدار الدفة جنوبًا ووجه سفينته الشراعية تجاه يافا، وخاض المياه التى وصلت إلى وسطه، وسط الأمواج التى وصلت حتى رأسه ليصل إلى الشاطئ فى زمرة صغيرة من ثمانين فارسًا وثلاثمائة من رماة السهام.

وكان هو نفسه مسلحًا بالقوس القذوف، ثم استبدل ذلك سريعًا بسيفه البتار. وتقدم هو وزمرة جنوده قدمًا ضد الأتراك الذين كانوا يغطون الشاطئ، وسرعان ما أجبروهم على التراجع، وبعد معركة رائعة، فتحوا المدينة وأنقذوا الحامية المسيحية، ولكن الأتراك الذين أخجلهم أن تهزمهم قوة صغيرة أرسلوا قوة أخرى لمفاجأة ريتشارد فى خيمته أثناء نومه، واستيقظ الملك على صيحة تحذير فى اللحظة الأخيرة «إلى السلاح، إلى السلاح».

«وبالله، فما كان ريتشارد بالرجل الذى يهزه إنذار مفاجئ... مَن يستطيع أن يرد هجمات الكفار الفظيعة؟ لقد هجم الأتراك أولاً مطلقين صيحات الحرب وهم يلقون بسهامهم على الصليبيين. فأسرع الملك ريتشارد بين صفوف الجند يحث كل رجل على أن يكون حازمًا وألا يكون محجمًا، وهجم الأتراك كداومة مرة تلو الأخرى متظاهرين

بالهجوم لتتفرق جيوشنا الصليبية وتستسلم، ولكنهم كانوا فى اللحظة الأخيرة يغيّرون الاتجاه. وأدرك الملك وفرسانه الذين كانوا يعتلون صهوات الجياد ذلك، فهزموا جيادهم وهجموا مخترقين صفوف العدو الذى تفرق عن ذات اليمين وعن ذات اليسار، واخترقوا عدداً كبيراً من الأعداء بسيوفهم... ثم قامت معركة فظيعة، وشن رهط من الأتراك الهجوم على راية قلب الأسد حيث كانوا يفضلون ذبح الملك على قتل ألف سواه.. ولكن نشاطه وشجاعته كانا كبيرين إلى الحد الذى جعله يبدو عليه التهلل لوجود فرصة لاستعراض شجاعته. وكان سيفه الذى يلمع كالبرق يشق الرجال والخيول من المنتصف».

وحارب طوال اليوم، كما يحكى الـ «دوف» وعن كيف كان يحمل السيف فى يمينه والرمح فى يساره، وكيف كان يشق طريقه كمن يجنى محصوله بمنجل، وكيف أثار الرعب فى قلوب الأتراك الذين كانوا يسارعون للابتعاد عن طريقه، وكيف أنه رأى إيرل ليستر النبيل يسقط عن جواده يواصل القتال بشجاعة على قدميه، وكيف أنه أسرع إليه ليعيده إلى صهوة جواده، وكيف جذب رالف دو مابون من بين أيدى الأعداء وأعاده إلى الجيش، وكيف أن صلاح الدين أهداه جوادين فى خضم المعركة تحية لشجاعته. وكيف أن الملك قال إنه سيقبل أى عدد من الخيول من أى عدو ولو كان أسوأ من صلاح الدين. حيث إنه كان يحتاج الخيول بشدة، وكيف أن الملك المرعب الفريد عاد سليماً معافى إلى أصدقائه فى نهاية الأمر... وكيف أن السهام كانت منغرسة فى

جميع أجزاء جسده وسرج فرســه كما لو كان غزالاً يطارده الصيادون.
وحــين ســأل صــلاح الــدين جنوده الخجلى لماذا لــم يأســروا الملك ريتشارد، ردوا عليــه قائلين: «في الحقيقة، لم نرَ فــارسًا مثله منذ بدأ الخليقة.. والاشتباك معــه بمثابة حكم بالإعدام، وأعماله تفوق طاقات البشر!».

ووقــعــوا على هدنة لمــدة ثلاث ســنــوات، وتــركــوا أورشليــم للـ «Saracens» واستعادوا كنيــسة القيامة وحق حج المسيــحيين في أي وقت إليها. كما استعاد المســيحيون السهل الساحلي والموانى من صور إلى يافــا. وذهبت ثلاث مــجــموعــات من الصليــبــيــين لرؤية المدينة المقدســة، ولكن لم يكن من بينهم ريتشــارد، الذى أبى أن يذهب إلا كفاتح منتــصر، وأبحر قلب الأسد عائدًا إلى بلاده وإن بقــيت أساطير قوته مثلاً بين العرب. فلو أن فرسًا أجفل من الضجيج بين الأشجار، قالوا إن روح الملك ريتشــارد أرعبته، وكانوا يسكتّون الأطفــال الباكين محذرين: «صه انجلترا قادمة».

وكان أحد آثار الحملة الصليبية على انجلترا رفع ملكيات الأراضى؛ بسبــب رهن الفرسان لأراضــيهم مــقابل النقــود، ولــم يكن الملك هو الوحيد الذى بالغ من أجــل الحصول على المال، فقد باع رجــلاً اسمه چون دو كامــوى زوجته وكل جــواريها، كــما باع رجلاً اســمه أندرو أستلى ضيعته لكنيسة كــومب فى وارويكشاير مقابل ثلاثمائة وعشرين

استرلينى. كما رهن آخرون أراضيهم لأبراشيات لمدة ثلاث أو أربع أو سبع سنين، وإن نجوا من الحرب وعادوا إلى أوطانهم كانوا أفقر من أن يستعيدوا أملاكهم، واضطروا تمضية بقية حياتهم كإخوان فقراء فى الأديرة.

وكشف باحثو القرن السادس عشر فى بلاد ليلاند وكامدن عن الكثير فى أرشيف الدير وسجلات الأبراشية المحلية حول الحملات الصليبية. فقد كان هناك رجل يدعى أوزبورن جيفورد الذى جُرِم كنسيّاً لخطفه راهبتين (ولم يكتف بواحدة)، وكان ثمن العفو هو الذهاب لمدة ثلاثة أعوام فى إحدى الحملات الصليبية للأراضى المقدسة، ولم يكن مسموحًا له بارتداء قميص أو زى فارس فى هذه الأثناء، ولا كان مسموحًا له أن يدخل أديرة الراهبات ما حيا. وكان روچر دو موبراى شخصًا نادرًا ذهب مرتين إلى فلسطين فى أثناء الحملة الصليبية الثانية ونجا من أسر العرب. وحيث إنه كان محظوظًا لتلك الدرجة، فقد صار بطلاً للمغامرات الرومانسية، فقيل عنه إنه تدخل فى صراع دام بين تنين وأسد، وذبح التنين فاستحق امتنان الأسد فتبعه طوال طريق العودة إلى انجلترا! وذهب ابنه نجيل مع ريتشارد فى الحملة الصليبية الثالثة. أما الرجل الثالث فقد أخذه العرب أسيرًا، وهو هيودو هاتون، ثم هرب من سجنه بعد سبعة أعوام وعاد إلى الوطن فى أسمال بالية، وعرف من راعى غنم فى الطريق لم يتعرف عليه أنه كان يعتبر فى عداد الأموات. وعاد هيودو إلى قصره ليلقى ترحيبًا لا يعرف عنه

شيئًا، فالقصة تنتهى على عتبة قصره، وانضم إلى قائمة المحاربين الذين اعتبروا مفقودين ولم يتعرف عليهم عند عودتهم أحد - تمامًا كما حدث مع يوليسيس عند عودته من طروادة.

وكان النفى سببًا قويًا للذهاب إلى الحروب المقدسة. لقد أغاظ فولك فيتزوارين الباسل، الأمير چون فى أثناء لعب الشطرنج إلى الحد الذى جعل الأمير چون يخبطه برقعة الشطرنج على رأسه، فرد عليه فولك بلكمة كادت تودى بحياة الأمير العصبى المزاج، فطُرد من البلاط، فذهب إلى فلسطين، ولكن العواصف قذفت به إلى ساحل البربر، حيث أخذ أسيرًا عند العرب. ولكن يبدو أن أسره كان سعيدًا حيث أحبته امرأة شريفة أثناء بقائه عند السلطان، وفى نهاية الأمر ذهب شرقًا لينضم للملك ريتشارد فى حصار عكا. وكان بين هذا الجمع أيضًا النبيل ويليام دوبراتل، والذى اشتهر بانقاذه لريتشارد فى أثناء صيده، فصاح ويليام «أنا الملك» فأسروه، ولكن لحسن حظه أن الملك ريتشارد افتداه قبل أن يرحل عن فلسطين بعشرة أتراك.

حتى الشرير چون أقسم على الصليب حين تولى الملك بعد أخيه ريتشارد، ويمكن أن نقرأ فى وثيقة الحقوق التى بهت حبرها كيف أنه وعد ببحث كل طلبات الملكيات المعروضة عليه «قبل القيام بالحملة الصليبية» ولكن البارونات القساة، لم يثقوا فى نواياه وأجبروه على الوعد بتأدية طلباتهم فورًا لئلا يتخاذلوا عن الحملة.

وقد تباطأ چون بالطبع، ولكن ابنه الأكبر ريتشارد، إيرل كورنوال، كان مصراً كسميه ريتشارد الأول على الذهاب، وبما أنه الرجل الوحيد المسئول فى البلاط، حيث كان زمرة من الفرنسيين يتثاقلون على الحكومة تحت عيون أخيه الضعيف هنرى الثالث، شعر الإيرل ريتشارد بعدم القدرة على مغادرة البلاد؛ حيث إنه كان الوريث الشرعى للعرش. ولكن ما أن أنجب الملك ولداً حتى رحل إلى فلسطين. وحاول الجميع أن يثنوه بما فيهم البابا الذى حثه على شراء العفو من قسمه. وكان الدافع على نصيحة البابا هو سمعة ريتشارد كأغنى أمير فى أوروبا، بما أنه كان يملك مناجم القصدير والرصاص، ولكن الإيرل لم يقبل أن يبيع قسمه، وبدلاً من ذلك باع غاباته ليدبر التمويل اللازم، وحين استأذن للرحيل بكى الناس، كما قال ويليام أوف تاير؛ حيث إنه كان شخصًا يراعى الصالح العام، وقال لهم إنه لو لم يكن قد أقسم على الذهاب، لذهب كى لا يرى المآسى التى ستحل بالمملكة، وذهب معه ويليام لونجسورد الشجاع، إيرل ساليزيرى ولكنه قُتل بعد ذلك فى الحملة الصليبية فى مصر، كما ذهب معه ستون فارسًا والرفقة المعتادة من رجال السهام والرماح. ولكن حين رسوا فى عكا فى أكتوبر ١٢٤٠م، ووجدوا أن الهدنة سائدة بين المسلمين والفرنجة، حيث كان المسلمون منشغلين بصراع خليفتى مصر وسوريا. وحيث إن الهدنة لم تحترم شروطها، فقد اقتفى أثر سميه الملك ريتشارد وزحف إلى يافا، ولكن سلطان مصر المضغوط عرض عليه

السلام. وحيث إن الإيرل كان رجلاً صعبًا فى التفاوض معه، فقد خرج بأفضل شروط حصل عليها الصليبيون فى معاهدة، فقد ترك المسلمون أورشليم والناصرة وبيت لحم وأغلب الأراضى المقدسة للمسيحيين. وعاد الإيرل ريتشارد ليكلل فى الوطن على أنه مخلّص كنيسة القيامة.

وقد انضم إليه فى فلسطين سيمون دومونتفورت الذى أثارت زيجته من شقيقة الملك عاصفة قوية جعلته يرى أنه من الحكمة أن يغادر الوطن إلى فلسطين، وقد أطلق على سيمون «يوشع الثانى» فى المعركة، ومع عداء الصليبيين الدائم لليهود، طرد سيمون أبناء «يوشع» (اليهود) من بلدة ليسستر الصغيرة. ولم يظهر عليه حتى ذلك الوقت معارضته العظيمة لطغيان العرش، وربما كان الرجل الوحيد الذى حارب من أجل المبدأ فى هذه الصراعات الدامية بين الملوك والنبلاء منذ الفتح وحتى أسرة تيودور، وبالرغم من أنه لم يؤثر على مسار الأحداث فى فلسطين، إلا أن شخصيته القوية وقدراته قد اعترف بها بين الفرنجة المحليين، حيث عرضوا عليه الوصاية على العرش اللاتينى فى فترة ولاية الصبى عليه. ولكن سيمون كان يشعر بحنين أكبر بداخله ليعود إلى الوطن ويصير سيد انجلترا قبل هزيمته فى نهاية الأمر وميتته الوحشية.

وكان عهد الحملات الصليبية يوشك أن ينتهى. وصارت فلسطين

أرض المعارك بالنسبة للقبائل المسلمة الجديدة. فقد دفع المغول الزاحفين شرقًا الخوارزميين والأكراد جنوبًا وتبعهم التترى چانكيز خان بنفسه، وبعد انتصار معاهدة «إيرل كورنوال» بعامين، فقدوا أورشليم مجددًا وبقيت صور وعكا كآخر موطئ للفرنجة فى فلسطين، وتوجهت الحملات التالية تجاه مصر وساحل البربر حيث كان المماليك يحكمون، وكانت آخر جهود منظمة للغرب هى حملتى القديس لويس الفرنسى عديمتى الجدوى، حتى إن الشاعر العربى أطلق عليهما «الطبل الأجوف».

وفى ثانيتها، ١٢٦٩م إلى ١٢٧٢م، انضم إليه الأمير إدوارد من انجلترا، الذى انضم للحملات الصليبية برًا بقسم أقسمه حين خلع سيمون دومونتفورت. وعند وصوله إلى تونس مع أربعة إيرلات وأربعة بارونات وحوالى ألف رجل، تشاءم إدوارد لاكتشافه أن لويس والأمراء الآخرين قد وقعوا معاهدة مع السلطان، فأبحر إدوارد فورًا تجاه عكا برجاله، وهناك كوّن جيشًا قوامه سبعة آلاف رجل من الفرنجة المحليين، ولكنه لم ينجز سوى فتح الناصرة ثأرًا لتدمير العرب للأضرحة المسيحية فى المكان، وأوشك الأمير على الموت حين طعنه قاتل بخنجر مسموم، وظل طريح الفراش لشهور، وفى نهاية الأمر وقع معاهدة لمدة عشرة أعوام وعشرة أشهر وعشرة أيام، وبعد ذلك أبحر إلى وطنه وأصبح ملكًا عند وصوله، وكان آخر أمراء الغرب الذين حاربوا فى فلسطين.

ووصل إلى إدوارد خطاب فى ١٢٨١م من السير چوزف دو كانسى الذى أرسله ليعلمه بأخبار الأراضى المقدسة. وتحكى الأخبار عن معركة شهدها السير چوزف بين العرب والتتار المغوليين، وينعى قائلاً: «لم تصل الأراضى المقدسة أبدًا على ما أذكر لهذا الحال السيئ الذى وصلت إليه اليوم، فقد أضاعها ندرة الأمطار والطاعون والكفار.... ولم يحدث أبدًا أن رأينا جنودًا من الفرنجة بهذه القلة ولا غيب النصيحة الجيدة لهذه الدرجة». وكان واثقًا أنه إذا ما توافر الجنرالات القادرون والإمدادات اللازمة يمكن طرد الكفار، ويختتم بتحفيز إدوارد على العودة وإكمال الفتح.

ولكن الوقت قد فات، وكان إدوارد منشغلاً بفتح مملكة أقرب إلى حدوده، ولم يعد أبدًا للشرق. وكان الباباوات اللاحقون قد دنسوا هدفهم الأصلى بالمسوح التى اقتنع بها الصليبيون، بشراء العفو من البر بقسمهم بدفع الذهب لصندوق الفاتيكان. وحين جاء كبير كهان المعبد إلى أوروبا لطلب العون ضد المماليك الذين استعادوا نشاطهم، لم يستطع أن يجمع أكثر من بضع مئات من المرتزقة الإيطاليين. وصارت فلسطين قضية خاسرة، وبعد إيقاع ريتشارد قلب الأسد لمدينة عكا بمائة عام، زحف مائتا ألف مملوك على آخر مدن الصليبيين، وفى ١٢٩١م وقعت مدينة عكا فى نفس العام الذى طرد فيه إدوارد اليهود من انجلترا، وطرد آخر المسيحيين (الأوروبيين) من فلسطين.

***

الفصل الرابع

الكتاب المقدس باللغة الإنجليزية

فى عـام ١٥٣٨م أصدر الملك هنرى الثـامن إعـلانًا يأمر بتـجمـيع الكتاب المقـدس فى كتاب واحـد باللغة الإنجليـزية ليكون أكبر كـتاب عرفته اللـغة الإنجليزية - وقد أمر بأن توضع نسخـة منه فى كل كنيسة فى انجلترا. وكان الإعلان يأمر موظفى الكنيسة بوضع الإنجيل فى مكان مناسب ليتاح لرواد الكنيسة الاطلاع عليه بأسلوب ملائم ومريح.

ومع ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغـة الإنجليزية واتخاذه كأعلى مرجع للكنيسة الإنجليزية المستقلة، أصبح التاريخ والتقاليد والقيم العبرية جزءاً من الثقافة الإنجليزية، وأصبحت اليـهودية وعلى مدى ثلاثة قرون العامل القوى الوحيـد المؤثر فى الثقـافة الإنجليزية. وكـما قال مـاثيو أرنولد فـقد «ربطت عبقرية وتاريخ الشعب الإنجليزى بعبقرية وتاريخ الشعب العبرى» ولا يعنى هذا على الإطلاق أن انجلترا قـد أصبحت دولة عـاشقة لليـهود، ولكن دون الكتـاب المقدس الإنجليـزى فإن وعد بلـفور يصبـح مشكوكًـا فى صدوره، بالرغم من العوامل الاستراتيجية التى ظهرت بعد ذلك.

وأينما سـيطر الإصلاح، حل الكتاب المـقدس محل البـابا كسلطة روحيـة عليا. وازداد التـركيـز أكثـر وأكثـر على الأصول الفلسطينـية للمسـيحيـة للتقليل من ادعـاءات روما. وحلت كلمة الرب كـما هى واردة فى الكتـاب العبرى (الـعهد القـديم) لإبراهيم وموسـى ووصايا إشعيا وإيليا ودانيال والمسيح وبولس محل الأوامر البابوية.

ويقول توماس هاكسلى: «تذكروا الحقيقة التاريخية العظيمة، ألا وهى أن هذا الكتاب قد تخلل حياة كل ما هو نبيل وسام فى التاريخ الإنجليزى، وأصبح الملحمة القومية لبريطانيا». وتحققت الحقيقة المدهشة بتحول التاريخ العائلى لشعب إلى الملحمة القومية لشعب آخر. وبعد طبع نسخة الملك چيمس فى ١٦١١م، اكتمل التبنى وأصبح الكتاب المقدس جزءًا لا يتجزأ من انجلترا، مثله مثل الملكة بس أو الملكة ڤيكتوريا. وعادة ما يشير الكُتّاب إلى الكتاب المقدس بعبارات مثل الكتاب المقدس أو «أعظم الكلاسيكيات الإنجليزية» أو حتى «أكثر قطع التراث القومى احترامًا» يقول: اتش دابليو هور فى كتابه «تطور الكتاب المقدس» الإنجليزى، ويرينا كيف يمكن أن يضلل الحماس الباحث:

حيث إن الكتاب المقدس الإنجليزى ليس أكثر احترامًا من «تشوسر» ولا هو قطعة تراث إلا كترجمة. وسيظل محتواه تسجيلاً لأصول ومعتقدات وقوانين وتقاليد وتاريخ يهود فلسطين، وقد وضع أغلبه قبل أن يتعلم أى شخص فى انجلترا القراءة والكتابة. ولكن لم يتغلغل كتاب آخر فى دماء وعروق الإنجليز كما فعل هذا الكتاب، وحين طلب والترسكوت المحتضر من لوكهارت أن يقرأ له، سأله لوكهارت «من أى كتاب؟» فقال له سكوت: «لا يوجد سوى كتاب واحد، الكتاب المقدس!».

هل محتويات الكتاب المقدس أم جمال صياغة نسخة الملك چيمس هى السبب فى تأثيره على الشعب الإنجليزى؟ مسألة رأى. ويمكن

تجميع مكتبة من الأعمال التى تتناول تأثير النسخة الرسمية للكتاب المقدس فى خطاب وأدب انجلترا. ولكننا غير مهتمين بالجانب الأدبى وإنما بدور الكتاب المقدس فى تعريف وربط الإنجليز بالتقاليد العبرانية.

لماذا صار هذا التجميع لتاريخ الأسرة اليهودية كتاب الثقافة الإنجليزية؟ لماذا وجد ميلتون نفسه يلجأ لموضوعات الكتاب المقدس حين بدأ فى تأليف ملاحم عن بدايات انجلترا مثل «الجنة المفقودة» و«عذابات شمشون»؟ ولماذا لجأ بنيان لنفس المصدر حين أراد أن يكتب «رحلة الحاج» والتى أصبحت الكتاب المقدس الثانى فى كل البيوت الإنجليزية؟ ويتساءل الكاتب چون كوبر بويز من ويلز: لماذا صار الإنجليز مولعين بالعهد القديم؟ ولماذا يجد جنسنا الأنجلوسلتى ديانته المنفردة فى عواطف وخيالات اليهود أكثر من أى مكان آخر؟ ويقترح أنه ربما كان بين سكان الجزر البدائيين عرق ما قبل سلتى لم يكن «آرى» على الإطلاق، وأن الكتاب السامى حرك شيئًا فى أعماقه السلفية. وسيتعالى الرجل الإنجليزى على هذا التفسير السلتى «بالرغم من أنه ربما يعجب المتحمسين للحركة الأنجلوإسرائيلية، الذين أقنعوا أنفسهم من خلال ترجمة مشوهة لنصوص الشاردة فى الكتاب المقدس بأن الإنجليز هم أحفاد القبائل العشر المفقودة من إسرائيل». ولكن لا يجب على الإنسان الرجوع إلى حد الأعماق السلفية للبريطانيين البدائيين القدماء ليفهم سبب الإعجاب بالعهد القديم. فأساسًا ترجع جاذبيته إلى الفكرتين اللتين جعلتاه مختلفًا عن أى نص

أدبى دينى أسطورى: فكرة وحدانيـة الله، وفكرة مجتمع مـرتب قائم على قواعد الأخلاق الاجتماعية بين الناس بعضهم البعض وبين الله.
ويُعتبـر السيد جلادستـون مثال الرجل الإنجليزى التـقليدى الذى تربى على الكتاب المقدس والذى كـان يماثل الأنبياء القـدماء، وقد كتب أن المسيـحية تدين لليهودية بفكر وحدانية الله، وحـين نتساءل عن كيف نجت هذه الفكرة عبر العصور، ورغم إنكارها فى العـصور القديمة والظلام العالمى ووصلت إلينا، كان الرد أنها كانت محفوظة فـقط كرمز للالتزام الدينى فى بلد صغير بين شعب صغير عن طريق نصوص العهد القديم.

وعرفت الأجيـال الإنجليزية جيلاً تلو الآخـر الكتاب المقدس، وأن الله واحد وأن اليهود شعب الله المختار لينقل رسالته ويعيش بها، مهما كان قصوره. وفى بيوت كثيرة، كان الكتـاب الوحيد فى البيت، ولذا فقد كان يقرأ مـراراً وتكراراً حتى تحفر صوره وأشـخاصه وقصصـه فى خيالهم وتصيـر مألوفة لديهم كـالخبز. وكـان الأطفال يحفظون فـصولاً طويلة منه ويعرفـون جغرافـيّا فلسطين قبـل أن يعرفوا جـغرافيّـا بلادهم. ويذكر لويد چورچ كـيف أنه فى لقـائه الأول مع وايزمان فى ديسـمـبر ١٩١٤م كـانت أسماء الأمـاكن التى تذكر مألوفة بالنسـبة إليه أكثر من أسـماء الأماكن فى الغرب. ويذكر مؤرخ اللورد بلفور أن اهتمامـه بالصهيونية راجع إلى تعلمه للعهد القديم كطفل على يد والدته. ويتعجب المرء من أن يكون ذلك فى مثل صرامة ما كان مع راسكن الذى يذكـر فى أولى صفحات مذكراته كيف أنه كان بناءً على طلب من والدته، يقـرأ الكتاب المقدس كله بما

فيــه من أسماء صعــبة بصوت مــرتفع، بدءًا من سفر التكوين وانتــهاءً بسفر الرؤيا مرة كل عام، وما كان ينتهى من سفر الرؤيا إلا ليبدأ ثانية فى سفــر التكوين فى اليــوم التالى. وغالــبًا، لم يكن يعــرف أنه كان يفعل مــا كان يفعله كل الأطفــال اليهود فى حــاراتهم كل عام (ولكن دون قراءة العــهد الجــديد)، وكان يذكر ذلك على أنــه أغلى جزء فى تعليمه.

ولا نســتطيع أن نعول عــلى التاريخ الدقــيق لمتى تغــيرت انجلتــرا، وأصبحت إنجيليــة پروتستانتية، وأصبح إله إبراهيم وإســحاق ويعقوب هو إله الإنجليــز، وحــين حل أبطال العهــد القــديم محــل القديســين الكاثوليك. وكانت كل أوروپا تتغير فى العهود قبل وبعد عام ١٥٠٠م حين انتــهت العصور الوسطى وبدأ عــصر الإصلاح، وبدأ ما أســموه بالتعليم الجديد. ويؤرخ البعض تاريخ نهــاية العصور الوسطى بسقوط القسطنطينية فى يد الأتراك فى ١٤٥٣م، بينما يؤرخــها آخرون باختراع الطباعة فى ١٤٥٤م، أو باكتشاف كولمبس للعالم الجديد فى ١٤٩٢م، أو بالثورة ضــد روما التى بدأت بتعليق لوثر لآرائه على باب الكنيــسة فى ١٥١٧م. ولم يتســبب أىٌّ من الأحداث الأربعة وحــده فى مجىء العصر الجديد، وإنما جاء به مزيج هذه الأحــداث كلها خلال خمسين سنة. وفى انجلترا، استغرق إكمال الإصلاح طوال القرن السادس عشر المتــقلب، حين كــانت تطيــر رءوس فى المقــصلة، كــمــا كــان يُحــرق المتــهرطقــون، ومن بين من ســالت دماؤهــم كان تيندال (ذو الإيمــان

الجـديد) متـرجم الكتاب المقـدس، وتومـاس كرومـويل وزير الملك، والسـيد تـوماس مـور (ذو الإيمـان القـديم). وبالرغم من كل ذلك استمرت ترجمة الكتاب المقدس بثبات حتى وصل إلى ذروته فى بداية القرن الجديد عندما صدرت نسخـة الملك چيمس. وقد تم إنجازه بثمن باهظ، ولكن كما قـال الشاعر الفارسى «يكتمل احـمرار الوردة حيث سالت دماء القيصر».

وكان العـمل الذى أثمر ونتج عنه الكتاب المقـدس فى ١٦١١م قد بدا بتـيندال فى ١٥٢٥م، ولم تكن ترجـمتـه أول ترجـمة بالعـاميـة الإنجليزية. ولكن كل النسخ التى سبـقته كانت قبل اختـراع الطباعة، وكانت محـدودة بصعوبة نسخـها باليد. ومع بدء توافر الطـباعة، لم يكن من الممكن إبعـاد الكتاب المقـدس عن العامـة؛ حيث إنـه ما إن كانت الكنيسة تشترى نسخة أو تحرقها إلا وكانت نسخ أخرى تُطبع.

ولم يكن سبب الإصلاح هو أن الملك هنرى الثامن تحدى البابا من أجل الحصول على طلاق، وأقر الثورة البروتستانتية، لكن السبب كان حادثة وضعت التاج فى جانب المصلحين أسرع مما كان سيحدث لو لم تحدث، ولكن الإصلاح كان سيحدث على أى حال حتى لو لم يعش هنرى الثـامن وحتى لو لم يكـن اشتـهى آن بولين. لقد كـانت روح البروتستانتية قـد بدأت فى الخارج وقويت فى انجلترا منذ حارب چون ويكليف وتابعوه الدينيون الكنيسة الرومانية فى القرن الرابع عشر. وقد

ترجم ويكليف وتلاميذه الكتاب المقدس بأنفهسم من اللاتينية فى ١٣٨٠م. ونرى كيف كانوا متفانين من أجل أهدافهم من التفكير فى كم العمل الذى تطلبته الترجمة. ونجا ١٧٠ مخطوطًا من كتاب ويكليف المقدس. ولا بد أنه كان يوجد أكثر من ذلك بكثير؛ لأنه لا بد قد دمر الكثير عند إعدام الأتباع الدينيين كمتهرطقين، كما فقد الكثير لاحقًا. ربما كانت ثلاثمائة أو أربعمائة قد أعدت، وكل منها قد نُقلت بجهد جهيد بخط اليد (يبلغ عدد كلمات الكتاب المقدس حوالى ٧٧٤٠٠٠ كلمة)، وكانت كل نسخة تعرض ناسخها لخطر الموت أو الحبس، لقد كان مجرد امتلاك الكتاب المقدس العامى يستخدم كدليل على الهرطقة، واتهمهم أحد أتباع ويكليف فى القرن الخامس عشر قائلاً: «أساقفتنا يلعنون ويحرقون قانون الله لأنه مكتوب بالعامية».

ولكن ما كان يهم الأساقفة لم يكن قراءة الكتاب المقدس، وإنما من كان يقرأه. ولم تكن الترجمة هى ما أغاظت الأساقفة وإنما الترجمة بدون استئذان، واستخدامها فى فصول الهرطقة والثورة، التى أظهرت مزاجها العدائى فى ثورة الفلاحين فى ١٣٨١م. وكان كثيرًا ما يسمح للأغنياء الملتزمين المهتمين بالحفاظ على سلطة الكنيسة بقراءة الكتاب المقدس المكتوب بالإنجليزية. ولكن كبار الموظفين الدينيين اهتموا بإبعاد الكتاب المقدس المكتوب بالإنجليزية عن يد رجل الشارع؛ لئلا يجد طريقًا مباشرًا إلى الله دون المرور بكهنوت الكنيسة المقدسة. وفى ١٤٠٨م قرر الأسقف أرندل أن من يصدر أو يستخدم نسخة غير

مرخصة من الكتاب المقدس يعرض نفسه لعقوبة الموت حرقًا، وقد أقر الملك والبرلمان هذا القانون فى ١٤٠٠م، وهو أول تشريع فى القانون الإنجليزى يسمح بعقوبة الإعدام بسبب المعتقدات الدينية. وكان يقول بأن المنحرفين الذين ينتمون لطوائف جديدة ويعظون ويعلمون سرًا وعلانية مذاهب هذه الأيام المنحرفة والآراء الخاطئة الشريرة المتهرطقة، ويتبعون ويمارسون مدارس غريبة ويكتبون كتبًا شريرة، سيسلمون إلى المحاكم العلمانية لو لم يقلعوا عن ممارستهم، وسيحرقون لتردع هذه العقوبة الآخرين. ولا عجب فى أن توماس فولر يقول فى كتابة «تاريخ الكنيسة» عن أحد أتباع ويكليف، وهو چون دو تروفيسا الذى قام بترجمة الكتاب المقدس فى ١٣٩٧م إنه: لا يعرف ما يجب أن «يعجب به أكثر، قدرته على القيام بالعمل، أم جرأته على القيام به، أم مهارته فى القيام بهذه المهمة الخطيرة الصعبة».

وعادة ما كانت كتب ويكليف المقدسة فى حجم الجيب، فقد كانت أصلاً معدة لاستخدام القساوسة المتجولين الذين كانوا يطوفون بالناس ليعظوهم ويقرأوا لهم من الكتاب المقدس. وتذكر السجلات أن تكلفة أحد كتب ويكليف المقدسة الصغيرة هى حوالى أربعين شلنًا أو ما يعادل اليوم مائة وخمسين دولارًا. إن حقيقة بقاء ١٧٠ نسخة بعد كل محاولات القضاء عليها لهى دليل على قيمتها. وبعد ذلك بقرن كانت أجزاء من مخطوطات الكتاب المقدس ما زالت تستخدم. ويخبرنا فوكس فى كتاب «الشهداء». والذى يتحدث عن سنة ١٥٢٠م، أن

حمولة من القش كانت أحـيانًا تدفع كثمن لبضعة فـصول من «العهد الجديد» بالإنجليزية.

وأساسًـا فقد كـانت حركة التابـعين الدينيين محـاولة لجعل الدين ديموقراطـيًا، ولتقريب الدين للناس عن طريق نص الكـتاب المقدس، بدون أى عـشور ولا صكـوك غفـران ولا صـفوح ولا رؤسـاء أديرة متخمين ولا أساقفة طامعين ولا كل إمبراطورية رجال الدين المرتشين. وأراد ويكليف أن يترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية؛ حيث إنه كان يؤمن بأن الكتـاب المقدس وليس أسقـفًا جـالسًا على عـرش روما هو المصدر الحقيقى لكل القوانين الإنـسانية والسماوية. وكأنه يأمل فى أن يجعـل من الكتاب المقـدس مرشدًا يـوميًا للإنـسان، لذا ترجـمه إلى العـاميـة. ولكن ترجمـة ويكليف للكتـاب المقدس لم تجـعله مألوفًـا لانجلترا، خاصـة العهد القديم، فقد كـانت النسخ قليلة وثمنها باهظًا والأمية منتشرة مما أعاق التغيير. ولكن مساهمة ويكليف الكبيـرة كانت فكرة أن الكتاب المقدس هو السلطة الروحـية العليا التى يجب أن يلجأ لها ويسـتشيـرها كل إنسان. وقد تولـد عن جهوده نمو البـروتستانتـية الإنجليزية المتأصلة والتى كانت لازمة قبل تحول هذا النمو إلى إصلاح. ولكن الكتاب المقدس الإنجليزى كان عليه أن ينتظر الطباعة.

وبالرغم من ذلك فـفى عصـور ما قـبل ويكليف، كـان محـتوى الكتاب المقدس - خاصة سفر التكوين وسفر الخروج وسفر المزامير من

العهد القديم، وبشارة المسيح من العهد الجديد - مألوفًا للإنجليز. وقد رأينا كيف أن جيلداس السلتى، أقدم مؤرخ بريطانى، قد ألف كل سطر فى رسالته الإنجيلية وأمثلة العهد القديم حاضرة فى ذهنه. وبداية من بيد، أعدت ترجمات كثيرة إلى اللغة الأنجلوساكسونية لأجزاء من العهد القديم والعهد الجديد فى فترة ما قبل الفتح. وقد ترجم بيد نفسه بشارة يوحنا، وترجم الملك ألفرد سفر المزامير والوصايا العشر إلى الإنجليزية كجزء من عمله فى وضع تاريخ الكنيسة والآباء ليعلم شعبه. وقد تُرجمت نسخ أخرى من سفر المزامير والبشارات وأقاصيص الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية القديمة، ولكن ذلك كان لأسباب ورع وليس لأسباب پروتستانتية مثل أسباب الويكليفيين. وقد كان التعليم المتاح لرجال الدين الأنجلوساكسون محدودًا، وكانت لاتينيتهم ضعيفة. وكان الوعظ فى عهد الساكسون يتم بالعامية. وكانت ترجمات الكتاب المقدس تكتب فى عواميد موازية للنصوص اللاتينية لمعاونة القساوسة نصف المتعلمين فى تقديم القداس وقراءة المواعظ. وكانت المواعظ قصصًا تدور حول العهد القديم عن آدم وحواء والأنبياء ويوسف وأخوته وموسى وسفر الخروج، كما كانت تؤلف أشعارًا يغنيها الشعراء فى مآدب العشاء حول هذه القصص. وكانت هذه القصص مادة للپانتومايم ولمسرحيات المعجزات.

لقد ألف كادمون أول شاعر إنجليزى، ملاحمه البطولية عن موضوعات العهد القديم. وفى قصة «بيد» التى لا تنسى، يظهر

كادمـون كراعٍ يطلب منه مـجمـوعة من المحتـفلين إنشاد أغـنية وهم ملتفون حـول نيران الليل، ولكنه لم تكن لديه القدرة على تسـليتهم، وبينمـا كان ينام مع الثـيران، جـاء غريب وطلب منه أن يغنى وحـين احـتج بأنه لا يستطيع، أعطـاه الرب الصوت والكلمـات، فقـام إلى الهارب وأنشد أغنيـته. وتذكر كلمات الأغنية لاحقًـا وكررها، فكتبت من بعـده. ويقول بـيد إن «أغنيـتـه كانت حـول خلق الكون ومـولد الإنسان وتاريخ الخلق. كما غنى عن خـروج موسى والإسرائيليين من مصر ودخولهم أرض الميعاد».

وتنتمى الكثيـر من الأشعار الكادمونية إلى قرون جـاءت بعد القرن السابع الذى ازدهر فيه كادمون، ولكنهـا نُسبت إليه بسبب الشهرة التى أضافها عليه بيد. وقد كتب معظم تلك الأشعار مجموعة من الشعراء الساكسون، وتدور هذه الأشعار حول أحداث العهد القديم التى تروق للجمهور الساكسونى، فكانت كلها قصص عن الملوك والطغاة والمعارك والبطولات، وكانت تترجم بأسلوب قريب من الشعـراء ومستمعيهم. وعلى مر القرون الأربـعة التى سبقت الغزو النـورماندى أبقت غارات الاسكندنافيين القدماء على بعض مناطق انجلترا فى حـرب مستمرة، ولـم يمر عـام لم يغز فيـه الدنماركيون على منطقـة ما ليسلبـوا ويقتلوا ويجرفوا، ولـم تبقَ بقعة مأهولة ألا وتركت كأكوام رماد فى ذات يوم، وهذا هو ما يـقصده الشـاعر حـين يحكى عن قيـادة إبراهام لجيـوشه لمحاربة الملـك في وادى سادوم. وكان انتـصار إبراهام. مـرضيًـا تمامًا

للساكسون المهزومين أبدًا. وكان الشاعر يصور كيف أن وحوش البرية تمزق قتلة الأحرار. وقد ترجم ستوبفورد بروك كلام إبراهام لـ «ملكى صادق».

سترتاح لفترة من الخوف من إغارات أعدائنا الذين نكرههم

سترتاح من حروب الشماليين حيث إن أكلة الجيف

مغطاة بالدماء وتنتظر تحت الجبل متخمة

حتى الحلقوم بالموت المفزع للأعداء

كما كان الجمهور الساكسونى يعجب بالمصير المروع لجيش فرعون الذى غرق تحت أمواج البحر الأحمر كنموذج لموت الطغاة. ويكتب شاعر مجهول بالإنجليزية القديمة عن سفر الخروج: «لقد كان يومًا مشهورًا فى منتصف الأرض حين تحركت الكتلة الكبيرة. لقد كان الإسرائيليون يرتعدون لسماع ضربات أقدام جيش فرعون، ولكن موسى يقودهم للدفاع، ويحفزهم لارتداء زى الحرب والحلم بالأعمال العظيمة، ومن خلفهم ابتلع البحر الأحمر جند فرعون، وغرق الأعداء فى الأعماق».

وحين امتد رعب الاسكندنافيين السنوى ليتجاوز اقتناص الحدود، وخمد الأمل فى تخليص البلاد من أعدائها، حاول المقاتلون مثل الملك ألفريد والقادة الدينيون مثل أبوت ألفريك إشعال الشعور

بالمقـاومة الشـعـبيـة بين الناس. ومات ألـفريك الذى لقب بـ «جـرا ماتيكوس» تمجيـداً لتعليمه العظيم فى عـام١٠٢٠م، وكان يطلق عليه أشهر كـاتب دينى فى عصره، وعلى مدى خـمسة قرون لاحـقة. وقد كان ألفريـك يشير إلى الأمثلة العـبرية القديمة لينشـر التعليم الدينى، وليعزز روح القـتال الوطنى بين شعبـه. وبالإضافة إلى ترجمـة أسفار موسى الخـمسـة، فقد لخص أغلـب العهد القـديم فى أسلوب روائى بسيط، كمـا كتب العظات الدينية المبنيـة على سفر القضـاة، و«إستر» مخلصة شـعبها، و«يهوذا»، و«مكـابوس» ويبرر اختياره الأخـير بسبب شجاعة أسرته فى محاربة القـوى الكافرة المعتدية عليهم، والتى كانت تهـدف إلى تدميـرهم واقـتلاعـهم من أراضـيهـم التى أعطاهم إياها الرب. . . . . وقد انتصروا من خلال الرب الذى وثـقوا به تبعًا لقانون مـوسى. . . . ولـذا ترجم كل هذا للإنجليـزية كى يقـرأه من أجل تعليـمهم. ويقول: «إن يهـوذا المكابى، الذى ضمن مكانـه فى سجل القديسين، كان مقدسًا فى العهـد القديم، كما كان مختاراً من الله فى بشـارة المسيح؛ لأنه كـان يكافح لأجل مشـيئـة الرب. . . . لقد كـان فارس الله الذى كان يحارب ضد الغزاة لأجل شعبه».

ثم قاس يهوذا محيط جسمه وهو متدرعًا بصدريته اللامعة

وكان عملاقًا ضخمًا وسلح نفسه بالكامل

وحمى ضيفه من الأعداء بسيفه

ثم صار كالأسد فى نضاله وفى أفعاله

ويضمن ألفريك شرحًا لجمهوره عن كيفية حدوث هذه الأشياء، ولو أن أحدًا تعجب من ظهور ملائكة الرب لليهود، فعليه أن يعلم أن:

اليهود كانوا الأغلى عند الله

فى القانون القديم حيث إنهم كانوا يمجدون الله القادر بعبادته باستمرار

وحتى ولد المسيح ابن الرب

ذو الطبيعة البشرية، من نسل اليهود

ثم لم يصدق البعض فى أنه الله ذاته

ونصبوا الشراك للقضاء على حياته. . . .

ولكن الشعب اليهودى كان غنيًا بالأخيار

فى العهد القديم والحديث

فقد جاء منه الآباء والأنبياء والرسل المقدسون

وربما كان ألفريك قد رأى بعض العلامات المقلقة تنبأ بأن الساكسون، بسبب اختلاطهم بالدنماركيين الوثنيين، يتوقون لأوثان آبائهم، ولذا حرص على الإشارة إلى أنه حين ترك الإسرائيليون

القدماء الله الحى ونسوه، أغار عليهم الوثنيون المحيطون بهم، وأحطوا من شأنهم، ولكنهم حين دعوا الله بصدق وبندم خالص، بعث لهم العون من خلال قاض انتصر على أعدائهم وخلصهم من كربهم. كما أرفق فى الكتاب قائمة بأسماء الملوك الإنجليز، الذين انتصروا على الأعداء بمعونة الرب كما فعل قضاة إسرائيل.

كما يشرح ألفريك أنه كتب قصة «يهوذا» بالإنجليزية بأسلوب الإنجليز كمثال للرجال ليدافعوا عن أرضهم ضد العدو المغير. وقد كانت عظة ألفريك عن أعمال يهوذا البطولية مستوحاة من أكثر أشعار الكتاب المقدس تأثيرًا، «الجوديث» والذى كان مؤلفًا على شرف زوجة «أبو ألفريد»، الملكة «جوديث» الصغيرة التى تزوجها أبو ألفريد فى ٨٥٦م، ولكن بعض الباحثين الآخرين شككوا فى أن القصيدة ترجع إلى تاريخ متأخر عن عصر ألفريد، وأن القصيدة هى التى استلهمت من عظته، وأنها ربما كانت تأبينا للملكة «مرسيا» التى قادت شعبها للحرب ضد الدنماركيين فى أوائل القرن العاشر. وعلى كل الأحوال، فقد وضعت القصيدة على نفس المرتبة مع «بيوولف» فى مقدمة الأدب الإنجليزى القديم، وقد جعل ذلك من جوديث بطلة مفضلة. ويأتينا وصف كيف كان هولوفيرنس يشرب كفارس ساكسونى فى الجزء الذى وصلنا من القصيدة.

ضحك وزأر وجلجل حتى سمعه شعبه يصخب ويرعد

وهو فى فرح مرعب وسكر مجنون

وتدخل جوديث خيمة الملك الآشورى النائم من السكر

ويلمع سيفها وهو يهوى على رقبته، فيفصل رأس الطاغية

فتأخذ الرأس ذا اللحية السوداء الذى تقطر منه الدماء وتلقى به إلى الشعب

المجتمع عند أسوار المدينة بأسلوب المنتصرة، وتحثهم على الثورة

وبفخر يشق اليهود طريقهم بالسيوف

من خلال الحشد المتعطش لانطلاق الرماح

ويتم النصر، وتغطى جثث الآشوريين المذبوحين

أرض ميدان القتال، وتأكلهم الغربان السوداء

وبالرغم من أنه لا بد أن هذه النسخ القديمة قد عَرّفت الشعب الساكسونى - بقدر الاستطاعة من منبر الوعظ - بالأصول العبرية للمسيحية، وجعلت من تاريخ فلسطين القديمة دراما، إلا أن الكتاب المقدس الإنجليزى لا يدين بأى شىء لهذه الأجزاء القديمة. فأولاً، ما كانت اللغة التى كتبت بها الأجزاء القديمة ستفهم فى عصر ويكليف ولا فى عصر تندال. بالإضافة إلى ذلك، فإن الغزو فصل الماضى، وتم تجاهل ثقافة ما قبل الغزاة، فنسيت إلى حد بعيد. كما كان الجهل باللاتينية وضعف القدرة على القراءة والذى أحزن الملك ألفريد

وألفريك وراء الترجمات الأولى، والتى كانت معدة لتعليم بسطاء الشعب وتعريفهم بتراثهم الدينى، كما نقرأ نحن اليوم قصص الكتاب المقدس المبسطة للأطفال. ولكن فى انجلترا ما بعد الغزو، سادت اللاتينية وعلا شأن الجدليين والباحثين، وكان الالتزام تامًا بالكتاب المقدس والخضوع كاملاً للباباوات، على الأقل حتى عهد ويكليف، وكان مثل هذا الشرح المرسل مثلما فعل ألفريك وتلخيصه للعهد القديم بكل حذفه للنصوص والقوانين الصعبة سيعد هرطقة، حتى وإن افترضنا أن لغته كانت ستفهم.

وأقدم الشعراء على المحاولة التالية لجعل العامة يفهمون الكتاب المقدس، ليس بموافقة التاج والكنيسة كما حدث فى عهد الساكسون، وإنما بغير رضا السلطة، وبالرغم من أن ويكليف كان قسًا هو نفسه، وبالرغم من قمع هذه المحاولة بشدة فى القرن الخامس عشر، فقد عبرت المحاولة الخندق مع قدوم الإصلاح وغيّرت تاريخ أوروبا. وكرجل متعلم، كان تيندال يفخر قائلاً لمن يفضل السلطة البابوية على الكتاب المقدس: «سأحدث انقلابًا يجعلك تعرف من نص الكتاب المقدس أكثر مما تعرفه الآن».

وحين بدأ تيندال عمله فى بدايات القرن السادس عشر، كانت ترجمة الكتاب المقدس بدون إذن السلطة لا تزال جريمة يعاقب عليها القانون، حيث لم يكن هنرى الثامن قد انفصل بعد عن روما. ولذا

فقد عمل «أبو» الكتاب المقدس الإنجليزى فى ترجمته من منفاه من غرفة صغيرة فوق سطح أحد البيوت فى مدينة كولون، واضعًا أمامه قواعد اللغة العبرية وقواعد اللغة اليونانية على منضدة مضاءة بالشموع. لقد قام الويكليفيون بإعداد ترجمة عن ترجمة حين ترجموا الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس. ولكن تيندال، الذى كان يعرف اليونانية وبعض العبرية، ترجم من الأصول مباشرة. ولم يكن متاحًا له كتاب ويكليف المقدس، فبدأ من البداية، كما يقول فى رسالته إلى القارئ فى تقديمه للعهد الجديد: «لم يكن هناك من أستطيع تقليده، ولا كان هناك أى أمل فى النسخ الإنجليزية التى ترجمت الكتاب المقدس من قبل». ومنذ عهد ويكليف، أحيا التعليم الجديد تعلم اليونانية والعبرية اللتين كانتا متجاهلتين فى العصور الوسطى اللاتينية. وكان الكردينال ولسيى، وقد انتهى لتوه من تأسيس كلية فى أكسفورد عرفت فيما بعد باسم كنيسة المسيح، حيث رأس روبرت واكفيلد أول قسم للغة العبرية. وفى كمبريدج أسست كلٌّ من كلية المسيح وكلية القديس چون للتعليم بأسلوب اللغات الثلاث.

وفى أكسفورد كانت منح دراسة اللغة العبرية قد ازدهرت لفترة وجيزة فى القرن الثالث عشر حين كرس أسلوب الفرنسيسكان الجيد نفسه للتعليم والفلسفة تبعًا للأسقف العظيم جروسيتيست، وصار لليهود فى أكسفورد واحد من أكبر تجمعاتهم، قبل طردهم من انجلترا، وكان كلٌّ من جروسيتيست وروچر باكون - وهما من ألمع شخصيات

الفرنسيسكان - قد درس العبرية هناك، وكان باكون يؤمن بأن تعلم العبرية أساس للتعلم الحقيقى، حيث كان يقول بأن المعرفة تنبع من كلمة الله المعلنة، التى أعلنت للعالم -لأول مرة- بواسطة هذه اللغة. وقد وصلتنا أجزاء من كتاب يُعتقد أنه كتاب عن قواعد اللغة العبرية. ولكن بعد تراجع الفرنسيسكان انتهى أمر تعلم العبرية حتى أحيى فى عصر النهضة.

وفى نهاية القرن الخامس عشر، تم طبع كتب مقدسة عبرية جديدة بأوامر من الحاخامات العالميين. وفى ١٥١٦م نشر إيراسموس طبعة جديدة من العهد الجديد الأصلى باللغة اليونانية مع ترجمته الشخصية له باللغة اللاتينية معتمدًا على النسخة الأصلية اليونانية. وقد استخدم لوثر إنجيل إيراسموس اليونانى فى ترجمته للعهد الجديد إلى الألمانية والتى ظهرت فى ١٥٢٢م. أما ترجمته الألمانية والتى ظهرت للعهد القديم فى ١٥٣٤م المطبوع فى ١٤٩٤م، فقد كانت نقلاً عن النص العبرى المازورى.

بدأ تيندال بالعهد الجديد، وطُبعت ترجمته الكاملة فى ألمانيا، وهُربت إلى انجلترا فى ١٥٢٦م. ومن بين ستة آلاف نسخة لم ينج سوى ثلاث نسخ لتصل إلى عهدنا؛ حيث إنه قد اتخذت إجراءات قاسية لقمعه. وفى الحقيقة، فإن قلق الأساقفة الذى جعلهم يحرصون على شراء النسخ لتدميرها هو الذى أمد تيندال بدخل مستمر مكنه من

العمل على ترجمة العهد القديم. ويخبرنا تأريخ «هال» أن السير توماس مور والذى كان قاضيًا فى ذلك الوقت، كان يستجوب رجلاً يدعى چورچ كونستانتين الذى كان متهمًا بالهرطقة، وقال له: «يا كونستانتين، أريدك أن تصارحنى بشىء.... يوجد خلف البحر تيندال وچوى والعديد منكم. وأعرف أنهم لا يمكن أن يحيوا بدون مساعدة. يوجد شخص يساعدهم ويرسل لهم الأموال، وبما أنك منهم فأنت تعرف مصدر هذه الأموال، فبالله عليك أخبرنى عمن يمدهم بالأموال».

فأجابه كونستانتين: «ياسيدى، سأخبرك بالحقيقة، والحق هو أن أسقف لندن هو من يساعدنا؛ حيث إنه أعطانا مبلغًا كبيرًا من المال مقابل حرق نسخ العهد الجديد وقد تم ذلك. وقد أعربت للقس عن ارتياحى لشرائه للنسخ!».

وبخلاف ذلك المصدر غير المتوقع للتمويل، فقد كان تيندال ومن بعده كوفردال وشركاؤهم يستمدون التمويل والتأييد الحقيقى من مجموعة من التجار والأغنياء فى لندن، كانوا متحمسين كغيرهم للإطاحة بقبضة الضرائب الرومانية البيروقراطية. وقد أيد هؤلاء الرجال تيندال فى المنفى ودفعوا تكلفة طبع الكتب المقدسة الجديدة فى ألمانيا ورتبوا لتهريبها وتوزيعها فى انجلترا. ولاحقًا حين جاءت الموافقة الرسمية التى خرجت بالعملية إلى النور، تحمل جميع نفقات طبع

الكتاب المقدس العظيم، الذى أمر به هنرى الثامن أن يقرأ فى الكنائس، تاجر أقمشة غنى وهو أنتونى مارلر، والذى قام فى هذا الأمر بصفقة جيدة؛ حيث إنه حصل على موافقة باحتكار بيعه وغطى تكلفته وزاد عليها. حين كان يتم تهريب ترجمة «تيندال» للعهد الجديد، كان التجار يخاطرون برقابهم وليس بأموالهم، وبعد أربع سنوات من أول ظهور لترجمة تيندال فشلت جهود الأساقفة لقمع هذا الكتاب المقدس حتى إنهم وجدوا من الضرورى تنظيم حرق جماعى للكتاب فى فناء كنيسة القديس بولس، وفى هذا العام، فى ١٥٣٠م، انتهى تيندال، من ترجمة أسفار موسى الخمسة، والتى طبعت فى ماربرج وأرسلت إلى الأيادى التواقة فى انجلترا مع العملاء النشطين عبر القناة.

وفى هذه الأثناء، وعلى الصعيد السياسى، وبتخطيط من السياسى البارع توماس كروموبل، صعدت الأمور بالتدريج للانفصال النهائى عن روما، وبعد اغتيال الكاردينال ولسى الذى لم يرد أو لم يستطع أن يعطى هنرى ما أراد فى ١٥٣٠م، بدأت حركة كروموبل. وفى خلال فترة وجيزة جاء لحاكمه بزوجة جديدة ولقب جديد. وتم زواج هنرى من آن فى ١٥٣٣م، وتم إخضاع رجال الكنيسة للملك بقرار من البرلمان فى ١٥٤٣م، ثم صدر قرار السيادة فى ١٥٣٥م والذى كان يؤكد على السيادة: هنرى «رأس الكنيسة الإنجليزية» وأعلى سلطة فيها. وبدأت الجهود لإعداد نسخة إنجليزية من الكتاب المقدس. ولم

يكن من الممكن الاعتراف بنسـخة تيندال؛ حيث إن تعليقاته الهـامشية الشائكة حـول كيف تم تعـريف المعانى الأصليـة فى النسخة الـلاتينية لتوائم المذهب الكاثوليكى جعلته مثارًا للجدل. . وطلب رجال الكنيسة من الملك فى ١٥٣٤م ترجـمـة جديدة لتـوزع على الناس وتعلمـهم. ولتلبية ذلك جاء ما يسمى بإنجيل «متى»، والذى كان فى حقيقة الأمر تجميعًا لترجمة مـا وصل إليه تيندال مع ترجمة مايلز كوفردال، والذى أكمل ترجمة العهد القديم بعد تيندال. وقد جاءت إلى انجلترا مطبوعة بين عـامى ١٥٣٥م و ١٥٣٦م ورُوجـعت وأعـيـد طبعـهـا بأمر من الأسقف كرانمر بين عامى ١٥٣٨م و١٥٣٩م. وكان أول كتاب مقدس إنجليزى كـامل سُمح بطبـعه فى انجلترا، وعُـرف باسم «كتـاب كرانمر المقدس» أو الكـتاب المقدس العظـيم، وكان الكتاب الـذى تحدث عنه الملك فى إعلان ١٥٣٨م وحملت صفحة الغلاف الجملة التى حسمت صراع مائة وخمسين عامًا. «هذا هو الكتاب المقدس المعين للاستخدام فى الكنائس». كمـا كان مرسومًـا فيه صورة غـلاف صممهـا هولبين وتظهر الجماهير الغفيرة وهى تتلقى الكتاب بصيحات «يحيا الملك!».

وبينما كـان هذا يحدث، كـان تيندال العظيم، الباحث العـلامة المخلص العنيـد،«الرسول لانجلترا» كـما سـماه فـوكس، يحرق لدوره فى فك قـيود الكتاب المقدس!. ولـم يمت بيـد الإنجليز، إنما ويا لعجائب القدر، مـحسوبًا على الكنيـسة الإنجليزيـة التى تجرأت على الانفـصال. فقـد أحرقـه تشارلز

الخامس، إمبراطور روما المعظم، فقد اعتبر تيندال ممثلاً للكنيسة الإنجليزية التي صارت مهرطقة لانفصالها عن روما. ويا لعجائب القدر، فقد أعقب إعدام تيندال إعدام خصمه العظيم توماس مور، الذي أُعدم بعده ببضعة شهور لرفضه الاعتراف بملك انجلترا كرأس للكنيسة!

وحاول مور أن يعرقل الحركة البروتستانتية، وكان تيندال مصراً على نشرها، وكان هذا الصراع ممثلاً بذكاء في حوار مور ورسائل تيندال رداً عليه. لقد رضى كلاهما بالموت ثمنًا لإيمانهما، ولكن - للسخرية- كان موقف كل منهما نقيض الآخر. وبالرغم من أن مور كان الأشهر، فإن أثر تيندال كان أكبر؛ حيث إن عمل الأخير تردد صداه فى العالم المتحدث باللغة الإنجليزية للأبد.

وبعد ذلك بقرن، كتب ستريب عن الكتاب المقدس العظيم: «كان رائعًا أن نرى كم الفرحة باستقبال كتاب الله، ليس فقط من قبل المتعلمين، وإنما أيضًا من قبل كل الإنجليز حتى العامة والدهماء، وكيف كان النهم لقراءة كلمة الرب. فقد اشترى كل من استطاع الكتاب وقرأه أو جعل غيره يقرأه له». وتمامًا مثل كرانمر، فقد كان ستريب يعطى رأيًا منحازًا، فقد كان نصف انجلترا لا زال كاثوليكى القلب، كان هذا النصف يتخوف من الكتاب المقدس العامى كما لو كان ثعبانًا. وكمثال على ذلك نسرد قصة «ويليام مالدون أوف تشلمسفورد» ووالده فى إسكس، والذى أغضبت قراءته السرية للكتاب المقدس والده إلى حد

قتلـه تقريبًا. فـيحكى الغـلام أنه وصبى آخـر اشتـريا العهـد الجديد الإنجليزى من مـالهما سـرًا وخبآه فى فـراشهمـا تحت القش، ثم جاء الأب إلى غرفتهـما بعصاه وسأله أبوه عن معلمه، فقـال لأبيه ليهدأ: ليس لى معلم إلا الله، وفشل الأب فى الحصول على اعتراف بالخطيئة عن طريق ابنه، فـأقسم أن يشنقـه، وحاولت الأم منعـه دون جدوى، وعقد الأب الحبل حول رقبتـه، فتعلقت الأم بذراعه، ورقد الأخ فوق أخيه، فـأخلى الأب سبيله وتركه لينام، وظلت رقـبة الغلام تؤلمه من الحبل لستة أيام.

وقد تـعاطف الملك هنرى والأسـاقفـة مع الوالد أكثـر من تعاطفـهم مع الغلام، واندهشـوا لانتشار المبـدأ اللوثرى بعد سـماحهم بالكتـاب المقدس العظيم. وقد كان هنرى نفسه پروتستانتيًا فقط فيما تعلق بالتخلص من السلطة البابـوية دون أن يؤمن بمبادئ الپروتسـتانتيـة. وسمح بترجـمة الكتاب المقـدس ليكون الكتاب المقـدس الإنجليزى رمزًا لحـلول سلطته محل السلطة الـبابوية، واعتـبر نفسه بمـثابة «بابا انجلترا»، وكـان قلقًا بشأن قمع الثورة على المذهب كـما لو كان «بابا روما». **وبالفعل فـقد أحرق ثلاثة من أتبـاع لوثر فى عام ١٥٤٠م بتهـمة الهرطقـة، فى نفس اليوم الذى أحرق فيه ثـلاثة من أتباع البابا بتهمة الخـيانة، وقد علق لوثر على هذا الحـدث قـائلاً: «ما يـريده الملك زير النسـاء هارى يجب أن يصـبح إيمـانًا للإنجليز كمسألة حياة أو موت».**

ولكن السـد كـان قد ثقب، ولـم يسـتطع حـتى الملك زير النسـاء (هارى) رأبه ومنع الفـيضان. وبالـرغم من الإعلانات الحذرة لـرعاياه باستـخدام الكتاب باحـترام وتواضع، وأن يقـرأ بصوت بدون نزاع أو جدل حـول المقاطـع المثيرة لـلجدل فـيه، إلا أن الناس الذين أتيح لهم الكتـاب المقدس بلغـتـهم استبد بهم الحـمـاس والإثارة، فتـجمـعوا حـول المجلدات الورقية الضخـمة المقيـدة بمنبر الوعظ وأصـغوا باهتـمام لكل من استطاع قراءتها بـصوت جهورى، كما يستـمع الرجال فى يومنا هذا لنتائج كأس العالم. وفى كنيسة القـديس بولس كان يوجد ستة كتب مـقدسة ضخمـة مثبتة فى عـواميد بسلاسل حديد كى يـقرأها من يريد. وكان مشهد حماس الشعب مرعبًا للسلطة. ويخبرنا فوكس أن الشعب كثيراً ما كان يلجـأ لهذه الكتب المقدسة، خاصة عندمـا يجدون من يستطيع قراءتها بصـوت مسموع، وأصبح رجل يدعى چون پورتر خـبيراً فى هذا العمل الربانى، فـالتف حوله جمع كبـير للاستماع لصـوته الواضح وقراءته الجيدة. ولم يرحب رجال الكنيسة بمثل هذا الوعظ من عامة الشعب، فقبض على پورتر، واتهم بشـرح الكتـاب المقدس لجـذب العـامة مما أدى لحـدوث الشغب على خـلاف ما أمر به الملك، فـألقى به فى غياهب السـجن، ووجد ميتًا بعـد ستة أيام. وأعقب ذلك قرار من البرلمان يمنع غير المصرح لهم من قراءة الكتاب المقـدس بصوت مرتفع، وسمح للنبـلاء وعلية القوم من أصحاب العائلات بالإتيان بأشخاص لقراءة الكتاب المقدس بصوت خفيض لعائلاتهم، كما سُمح للنبيلات وزوجات التجار بقراءة الكتاب المقدس لأنـفسهن فى خـلوتهن بلا صوت مـسموع، وحظـرت قراءته

جهرًا أو سرّا على العامة بدون تصريح من الملك الذى لم يكن يسمح بقراءته إلا أن يرى أن ذلك يصلح حياة القارئ.

وكانت فرص فرض هذا القرار مساوية لفرص فرض الحظر، ليس لأن الشعب كله صار من قرّاء الكتاب المقدس بين ليلة وضحاها، ولكن أصحاب المبدأ البروتستانتى واللوثرى كانوا يجعلون من حرية إتاحة الكتاب المقدس مبادئ إيمانهم لإلغاء محاولة هنرى للقمع. وخاصة فى أيام الحركة الكاثوليكية فى عهد الملكة «مارى»(*) والتى تم تمزيق الكتاب المقدس المترجم فى الكنائس وحرم فى عهدها، مما زاد من أهميته كما يحدث كلما حاول الطغاة إخماد كلمات أو نظريات. وحين كان الطبيب تايلور فى طريقه إلى المحرقة، نادى على رعايا أبرشيته قائلاً: «يا أيها الناس الطيبون، لم أعلمكم سوى كلمة الله المقدسة والدروس التى استخلصتها من كتابه المبارك، الكتاب المقدس، وها أنا أمهر هذا التعليم اليوم بدمائى». وفى هذا العام المشتعل، عام ١٥٥٥م، أحرق ٦٧ بروتستانتيًا أمام العامة فى محاولة من الملكة «مارى» لفرض الخضوع ثانية على روما. ومات البعض مثل تايلور وفاءً لإيمانه الذى لا يحيد، بينما البعض الآخر مثل كرانمر ارتد عن ارتداده! ، ولكنهم بهذه الطريقة صاروا جميعًا أبطالاً وشهداء، وكانت كلمات الأسقف لاتيمر الأخيرة عند حرقه إيذانًا بفشل مارى: «ستضىء فى يومنا هذا بمشيئة الرب شمعة لن تنطفئ أبدًا فى انجلترا».

(*) كانت مارى كاثوليكية وسميت «مارى الدموية» لكثرة قتلاها - المترجم.

ثم انقلب الحال ثانية فى عهد الملكة إليزابيث، وعاد الناس لعهد الإصلاح وأعيدت الكتب المقدسة للكنائس وأمر بنسخة جديدة مع تحذير المحررين بضرورة اتباع الكتاب المقدس العظيم، وألا يحيدوا فيه بشكل واضح عن الكتاب المقدس اليونانى أو العبرى. وبذا حملت هذه النسخة ترجمة تيندال لجيل آخر، وعُرفت هذه النسخة الإليزابيثية باسم «كتاب الأسقف المقدس»، واستمرت فى الساحة حتى عهد الملك چيمس، حين علا شأن الطوائف الپيوريتانية التطهيرية التى كانت تفضل النسخة الكالفينية والمسماة بكتاب «جينيڤا المقدس»، مما جعل النسخة الرسمية الخاصة التى تقرأ فى الكنائس غير النسخ الخاصة التى تقرأ فى المنازل. وفى مؤتمر محكمة هامبتون فى عام ١٦٠٤م طلبت نسخة جديدة، وبدأت المهمة الكبيرة، التى اشترك فيها أربعة وخمسون باحثًا ونتج عن ذلك نسخة الملك چيمس من الكتاب المقدس.

وكان قد مر قرابة القرن على بدء تيندال عمله فى ترجمة الكتاب المقدس، وفى هذا الوقت نتجت أبحاث جديدة فى النصوص القديمة، وقواعد لغوية عديدة، وقواميس ورسائل وأبحاث نتيجة للتقدم فى دراسة العبرية واليونانية. وكان من بين المراجعين إدوارد لايفلى الأستاذ الملكى للغة العبرية فى جامعة كمبريدچ، ولانسلوت أندروز عميد وستمينستر الذى كان يعرف العبرية والكلدية والسريانية واليونانية واللاتينية والعديد من اللغات الأخرى، ووليام بدويل زميل كلية القديس چون بكمبريدچ، أعظم باحث فى اللغة العبرية فى أوروبا،

وعلى الأقل تسعة آخـرون كانوا فى وقتها أو صـاروا بعد ذلك أساتذة فى اللغة العبرية واللاتينية فى جامعة أكسفورد وفى جامعة كمبريدج. وقُسِمَ المراجعون إلى ست مجموعات، كل منها تضم تسعة أشخاص، من بينهم اثنان من أكسفورد، واثـنان من كمبريدج، واثنان من لندن. ولإرشادهـم وضع دليل من ثلاثة عشـر قانونًا يوضح براعـة أسلوب قديسى وباحـثى القرن السابع عشـر وأعطى لكل مجموعـة عددًا من الكتب للعمل فيـها، وكان كل رجل يعمل وحده فى عـدد محدد من الفصول. ثم يجـتمع الجميع ويتشـاورون فيما قاموا به ويتـفقون على الشكل النهـائى، ثم تتبـادل المجمـوعات الكتب النهـائية لمراجـعتـها بجـدية، حيث شـدد جـلالة الملك على ذلك. وبعـد ذلك إن تعَسَّـر الاتفاق علـى أى نقطة يكتب المراجعـون لبعضـهم البعض بشـكوكهم ويوضحون مكان الاختلاف والأسباب التى تدعو للمعارضة، ويحسم الأمر فى اجـتماع رؤساء المجـموعات فى نهـاية الأمر. ويمكن طلب الشرح من أى عالم خارج المجموعـة. وأمر كل أسقف بإرسال أخبار المشروع لأى عالم يعرفه فى مجال اللـغات القديمة، وأن يشجعه على إرسال أى ملاحظات مفيدة لمجموعات المراجعة.

وفى تقديمهم للعمل التام الذى ظهر فى عام ١٦١١م، كتبت «مجموعة العـمل»، كمـا أطلقوا عـلى أنفسـهم، أنهم حاولـوا تحسـين ترجمـة جيـدة بالفعل، أو انتـقاء الأفضل من عدة ترجمـات جيدة لإصدار ترجـمة واحدة جيـدة رئيسية لا يـشك فيها أحـد، حيث كان ذلك هدفـهم وإنجازهم. ولم

يتعـالوا على مراجعـة أعمالهم أو البدء مـن جديد فيمـا أنجزوه، ولم يلزموا أنفسهم بقسوة باستخدام نفس الكلمة الإنجليزية فى كل مرة ترد فـيهـا فى النص الأصلى؛ حيث إن مملـكة الرب ليست فى الكلمـات والمقاطع، واحتـفظت حريتهم فى اللغة بعمل من سبـقهم، وكان أول قوانينهم ينص على إقرار أسلوب تيندال بتقـرير أن تتبع كتاب الأسقف المقدس ما أمكن ذلك دون تغيير إلا للضرورة. ويتضح كم كان صدق المحاولة للاقتراب مـن أصول المعانى الموضوعة فى عصـور ماضية فى فلسطين، وكيف كانت خالية من التحزب المذهبى إلى حد مذهل، من تعليمـات المراجعين. فـمثلاً، كـان يجب الاحتفـاظ بأسماء الأنبـياء والعلماء ميسرة بقدر الإمكان كما كانت مستخدمة بالعامية. وحذرت المادة الثالثة من إضافة أى آراء فى الهوامش إلا لتفسير الكلمات العبرية واليونانية. كـما اعترف المراجعون فى المـقدمة أيضًا بجهدهم المسـتمر للبعـد عن وسوسة البـيوريتانيـين وألغاز البابـاوات، ولم يحـيدوا عن هدفهم، وهو جعل الكتاب المقدس يتحدث عن نفسه كما هو موضوع بلغة الكنعانيـين، وكما يفهمه العـامة أنفسهم. وقد افتـخروا بإنجازهم لكل ذلك؛ حـيث إن كتابهم المقـدس لم يفهـمه فقـط كل واحد من العامة ومن المتعلمين، وإنما أيضًا عرفه الجميع وأحبوه وتذكروه.

***

الفصل الخامس

على مشارف النبوءة

إنجلترا البيوريتانية والأمل فى إسرائيل

فى عـام ١٦٤٩م، ذروة الحكم البـيـوريتـانى لانجلتـرا، طـلب اثنان من الإنجليز البيـوريتان يعيشــان فى أمستردام من الحكومة الإنجلـيزية «أن تصبح الأمة الإنجليزية والسكان الهولنديون أول وأكـثر الدول استعداداً لنقل أولاد وبنات إسرائيل فى مراكبهـا للأرض الموعودة لأجدادهم: إبراهام، إسحاق، ويعقوب، ليتملكوا ميراثهم للأبد».

كذلك تضـمن الطلب أن «يُعاد السماح لليـهود بالتجـارة والإقامة بينكم فى البلاد».

لكى نفهم ما دفع يوحنا وابن عازر كارتريت، إلى المطالبة بمساعدة الإنجليز لبنى إسرائيل على استـعادة فلسطين، وأيضًا بإلغاء قرار إدوارد الأول بنفى اليهود - الذى دام قـرابة ثلاثمائة وخمسـين عامًا - يجب علينا إدراك التـحول الذى قـام به الكتـاب المقدس من خـلال الحركـة البيوريتانية. كان الأمـر كما لو أن كل تأثير نـراه اليوم للصحافـة والإذاعة والتليـفزيون والمجـلات على الرأى يعـادل تأثيـر كتـاب واحـد يتكلم باسم الرب، وتعززه السلطة المؤقـتة للمحكمة العليـا. لقد تأثر العقل البيـوريتانى بالعهـد القديم ،خاصة بقـصصه حول شـعب لا يمكن تغيير اقـتناعه بكونه شعب الله المختار ليقوم بعـمله فى الأرض. وطبقوا القصص على أنفـسهم (البيوريتـانز)، وكانوا الشعب الذى اخـتار لنفسه أن يرث ميـثاق إبراهام مع

الرب، وإعادة تجسيد لقديسى إسرائيل، بلطة حرب الرب كما كان يقول أرميا، وكان هاديهم الرسل وعزاؤهم فى التسابيح. وكان إخلاصهم وطاعتهم وإلهامهم ليس لرب يسوع السماوى، وإنما ليهوه رب الجيوش. وكانت إرشادهم من تعليمات من الكتاب المقدس، كلمة الرب التى كشف عنها لشعبه المختار، سواء عند المدفأة أو فى ساحة المعركة، فى البرلمان أو فى الكنيسة.

حتى عام ١٦٠٠م، كانت فلسطين بالنسبة لانجلترا أرضًا متعلقة بالكامل بالمسيحية، بالرغم من فقدها من أيدى المسيحيين بسبب تدخل الإسلام. أما الآن فصارت تذكر على أنها وطن اليهود، الأرض التى تحمل وعد الكتاب المقدس بعودة إسرائيل. وبدءًا بصعود البيوريتانية، بدأت حركة تنادى بين الإنجليز بعودة اليهود إلى فلسطين، ولم تكن الحركة لأجل خاطر اليهود، ولكن لأجل الوعد الموعود لهم، فتبعًا للكتاب المقدس فإن مملكة إسرائيل بالنسبة لكل الإنسانية سوف تأتى عند إعادة شعب إسرائيل إلى جبل صهيون فى أورشليم، وحينها فقط يرى العالم مجىء المسيح إلى العالم ثانية، كما يؤمن المسيحيون. وكانت العودة تستلزم - بالطبع - تحول الشعب اليهودى إلى المسيحية؛ حيث إن ذلك سيكون إشارة على تحقق الوعد. وكان هذا هو الأمل الذى حرك الأخوان كارترايت كما قالوا عن أنفسهما فى الطلب: «بما أننا - الطالبين أنفسنا - متخللان فى مدينة أمستردام بعض الجنس الإسرائيلى الذين يطلق عليهم اليهود... فبالمحاورة معهم وبالدراسة الجادة للأنبياء،

فـإننا وإياهم نجـد أن وقت نداء أورشليم اقتـرب، حـيث سنعـرف وإياهم عمانوئيل، رب الحـياة ونورها ومجدها... ليتـجلى المجد والورع من هناك، ولذا نتضرع إليكم...» ثم يستكملان طلبهما الذى أوردناه سابقًا.

وكانت عودة دخول اليهود إلى انجلترا مقترحة لسببين:

أولاً: كـان الپـيوريتـانز يؤمنـون بأنه: حيـث إن مذهبـهم أقـرب لليهودية، فإن اليهـود حين يحتكون بالپيوريتانية سيتحـولون للمسيحية بلا مقـاومة. وقـد كتب هنرى جـسى فى عام ١٦٥٦م: «إن الإنجلـيز أقدر بموهبتهم على إقناع اليهود».

ثانيًا: أصر الإنجيليـون المتشددون على أن اليهود لا يسـتطيعون بدء العودة إلى جبل صهيون بالقـدس حتى يكتمل تفرقهم فى كل البلاد. ولذا وجب جلبهم إلى انجلترا قبل إرسالهم إلى فلسطين.

ولم يكن طلب كـارترايت، الذى يرمـز لهذه الأفكار، طلبًـا غريبًـا فرديًا، وإنما كان منطقـيًا وطبيعيًـا لعصره. لقد كانـت انجلترا بين إبحار الماى فلاور فى عـام ١٦٢٠م وعودة الستـيوراتيـين فى عام ١٦٦٦م فى مزاج متعـصب، وربما كانت هذه هى الفترة الوحيدة المتـعصبة فى تاريخ انجلترا. لقد كانت بوصف «كارليل - Carlyle» انجلترا الإخلاص الفظيع للپيوريتانية، انجلترا الثورة العظيمة التى قتلت الملك والتى أورثت شعوراً شعبيًا بالذنب، أبقى انجلتـرا ملكية من يومها وإلى الآن، انجلترا «أوليڤر كرومويل- Oliver Cromwell» «خادم الرب بسيفه وبكتابه المقدس».

وجاء الغزو العبرى للفكر الإنجليزى مع البيوريتانية من خلال العهد القديم، ولكنه كان مشوهًا بالجهود التى كان يجب بذلها لإخضاع انجلترا ما بعد النهضة للأخلاقيات والقوانين والعادات المتأصلة فى شعوب الشرق الأوسط قبل ذلك بأكثر من ألفى عام. وفى إخلاصهم لفصول ونصوص العهود العبرية القديمة، أقدم البيوريتانيون غير هيابين من القفزة العقلية لأكثر من ألفى عام، وتبنوا أفكار الرعاة القبليين المتلمسين طريقهم خارج الوثنية تجاه الوحدانية فى أيام إبراهام، أو العبيد المنتصرين على الفرعون فى وقت الخروج، أو المحاربين على جبهات جديدة فى أيام شاول وداود. ولم يهمهم أن الروايات حول صراع العبرانيين للوصول إلى صيغة للحياة الجماعية طبقًا للقانون اليهودى، ولكى يصيروا دولة ويصدوا الأعداء، وليتسلقوا مثل سيسيفس إلى ما لا نهاية من حمأة الرذيلة إلى طريق الأنبياء، كانت روايات عن عصور رهيبة وبعيدة جدًا، ولم يهمهم أنها غطت فترة تقدر بألف وخمسمائة عام بين إبراهام والمكابيين، فقد تلقفها البيوريتانيون بحماس فنسوا كل ذلك.

ولم تكن الروايات مناسبة تماما لإعادة غرسها حرفيًا كمبدأ وسابقة تحتذى فى انجلترا فى القرن السابع عشر. ولكن هذا كان هو ما حاوله البيوريتانيون. وتبعًا لقرار اتهام أسقف لندن سانديز، فقد اتخذوا قوانين موسى كمبدأ من مبادى إيمانهم مبكرًا فى عام ١٥٧٣م، واعتبروها ملزمة للأمراء المسيحيين، وأن عليهم ألا يحيدوا عنها قيد

أنملة. وقد اتبعوا نصوص العهد القديم ببساطة؛ لأنهم رأوا أنفسهم فيه مثل اليهود. فقد رأوا أنفسهم مجموعة يقودها الله في صراع ضد الوثنيين الطغاة. وكانوا يرون أن كلمات الله وإرشاده وقوانينه المناسبة مكتوبة في العهد القديم لكل مناسبة، وأنهم كلما التزموا به كلما كان إيمانهم بالحق صلبًا ولا يمكن اختراقه. فقد كتب كرومويل لأحد جنرالاته: «إن الرب نفسه على خلاف مع أعدائك، ولذا فنحن في هذا الشأن نحارب من أجل الرب».

ونما ولع البيوريتانيين بالعهد القديم؛ بسبب تجربتهم الشخصية من اضطهاد الكنيسة المؤسسة لهم (Established Church). فقد كانت الكنيسة تسوقهم إلى المشنقة؛ بسبب رفضهم الاعتراف بسلطة سوى سلطة الكتاب المقدس. لقد كرهوا الأساقفة بنفس القوة التي كره بها البروتستانت الأوائل روما، ولنفس السبب، وهو أن المناصب سواء كانت أسقفية أو باباوية، عبارة عن دخلاء من عند أنفسهم بين الإنسان وربه، دخلاء كل مؤهلاتهم وسلطتهم بشرية بحتة. وكان لب الإيمان البيوريتاني هو حق كل إنسان في تفسير قوانين الله كما يرمز لها في الكتاب المقدس، وفي الكتاب المقدس فقط وليس سواه، واللجوء للقانون الإلهي كما في الكتاب المقدس دون سواه، سواء للأسباب الكنسية أو الدنيوية.

وحيث إن الدولة والكنيسة كيان واحد، فقد شارك التاج الكنيسة بطبيعة

الحال فى محاولة قمع المستقلين، أو البيوريتانيين المختلفين عن أعضاء الكنيسة المشيخية، والذين طالبوا بحث تكوين جماعات تحكم نفسها. وقد أشار الملك جيمس فى خطبة الرد عليهم إلى خطرهم على الملكية وكرههم لحكومة الأساقفة وانسياقهم للحكم الجمهورى. وقد كانت مبادئهم الدينية هى بذور وجذور مبادئهم السياسية. وقادهم عدم الاعتراف بحقوق حكومة الأساقفة المقدسة إلى نكران حقوق الملك المقدسة، كما قادهم تأييد حقوق الفرد فى حرية الضمير إلى التأكيد على حريات الإنسان الاجتماعية. وكما قال ماكولاى فقد كانوا على بُعد خطوة واحدة من الاعتقاد بأن أفضل سلطة على أمور الكنيسة تكون للمجمع الكنسى وأفضل سلطة للأمور الدنيوية تكون للبرلمان.

ويقول ماكولاى إن الاضطهاد قد قام بدوره الطبيعى معهم. وككل الطوائف المضطهدة، تخيلوا أن كرههم لأعدائهم كان بمثابة كره لأعداء الله. ولم يكن من العسير على الأرواح العنيفة الكئيبة أن تجد الكثير مما يمكن تشويهه فى العهد القديم للوصول لغاياتها. «**وبدأ يظهر على عواطفهم وعاداتهم تفضيل العهد القديم. واحترموا اللغة العبرية احترامًا لم يعطوه للغة بشارة إنجيلهم ورسالة بولس الرسول، وعمّدوا أبناءهم بأسماء أبطال ومحاربى العبريين وليس بأسماء القديسين المسيحيين، وبدلوا احتفال الكنيسة الأسبوعى بذكرى قيامة الرب يسوع المسيح، بسبت اليهود، وبحثوا عن سابقات ترشدهم فى سفر القضاة وسفر الملوك**».

ويتزايد سخط ماكولاى وهو يبرز الخصائص الكريهة للپيوريتانيين حين يصف «مشيتهم وملبسهم ونحول شعرهم وعبوس وجوههم»، ومنعهم لكل المباهج البريئة، وغنتهم الأنفية، «ولهجتهم المميزة التى أدخلوا بها العبرية بفجاجة على اللغة الإنجليزية، واستعاراتهم من شعر القصائد الغنائية الفجة لعهد بائد وتطبيقه على الاهتمامات الإنجليزية اليومية».

وبالطبع فإن عقل ماكولاى البحثى لا يسمح لبلاغته الفصيحة بالجنوح بتحيزاته، ولكن ميزانه قد اختل فى هذا الأمر بالذات، فهو لم يذكر شيئًا عن شرور النظام القديم التى كان الپيوريتانيون يحاولون التغلب عليها، ولا عن مُثل الپيوريتانيين العليا التى كانوا يعيشون بها. وفى هذا الشأن، فهو للأسف نمطى؛ حيث إن الپيوريتانيين لم يكونوا محبوبين ولم ينصفهم إلا القليلون، فقد كانوا هدفًا للسخرية كما يكون باب حظيرة بالنسبة لرام ماهر. وبالرغم من ذلك فقد أرسوا مبدأين أساسيين من مبادئ الديموقراطية فى المجتمع وهما: مبدأ حصانة الحكومة البرلمانية، ومبدأ حرية العبادة كما نسميه اليوم - وقد كان التسامح واحدًا من مبادئهم حتى وإن لم يمارسوه - فهو المبدأ الذى شكله براون وفوكس وروجر ويليامز، والذى أتى بالآباء الحجاج إلى أمريكا، وشكل القاعدة الأخلاقية للمجتمع الجديد فى العالم الجديد.

وإن كان البيوريتـانيون قد تخلوا عن التسامح والغـفران فى مقابل صفات قتـالية أخرى من العهد القديم، فقـد كان ذلك راجعًا لكونهم هم أيضًا كـانوا يحاربون ضـد المألوف لإرساء مـبدأ وأسلوب حـياة. وكان بوق «يشـوع» أنسب لظروفهم من مبـدأ إدارة الخد الآخر. فـقد جمع شاول الشعب وضرب العماليق بقوة لتخليص إسرائيل من أيدى مفسديها، ولكنه حين عفا عن حياة أجاج ملك العماليق، أمسك النبى صمـوئيل بأجاج، وقال له: «كـما أثكل سيفـك النساء تثكلك أمك» . . . و«قطع صموئيل أجاج إربا أمام الرب فى الجلجال».

فقد كان تشارلز الأول هو أجاج أو رحبعام، خليفة سليمان، الذى لم يستمع للـشعب وأجابه بقسوة: «أبى أدبكم بالـسياط، وأنا أؤدبكم بالعقارب». وبعد ذلك تمردت عليه القبائل صارخين: «إلى خيامك يا إسرائيل» وفى أثناء مرور تشارلز بسيارته فى «وايت هول» ألقيت على العربة ورقة كُتب عليها: «إلى خيامك يا إسرائيل».

أو قد يماثل تشـارلز والملكيون فرعون وبطانته، فقـد تم الاحتفال بالانتـصارات الأولى فى مـارستـون مور وفى ناسـبى بكلمات أغنـية انتصـار موسى علـى المصريين: «يمـينك يا رب مجـيدة فى قـوتها. بيمينك يا رب تسحق العدو». وبذا فقد كان الملكيون هم أبناء إدوم أو موآب أو بابليين، ويصرخ إرميا الغاضب على موآب: **ملعون من يقوم بعـمل الرب متـهـاونًا، وملعـون من حظر على سيفـه الدم**. [سفر إرمـيا الإصحاح ٤٨ : ١٠].

... وشعب إسرائيل هو سبط ميراثه، واسمه الرب القدير. أنت فأس معركتى وآلة حربى، بك أمزق الأمم إربًا، وأحطم ممالك. بك اجعل الفرس وفارسها أشلاء، وأهشم المركبة وراكبها. بك أحطم الرجل والمرأة والشيخ والفتى والشاب والعذراء. بك أسحق الراعى وقطيعه والحارث وفدانه. [سفر إرميا الإصحاح ٥١ : ١٩ - ٢٣].

أيها الرب قد قضيت على هذا الموضع (بابل) بالانقراض، فلا يسكن فيه أحد من الناس والبهائم، بل يصبح خرابًا أبديًا. ومتى فرغت من تلاوة هذا الكتاب، اربط به حجراً واطرحه وسط الفرات، وقل: كذلك تغرق بابل ولا تطفو بعد لما أوقعه عليها من عقاب فيعيا كل أهلها. [سفر إرميا الإصحاح ٥١: ٦٤].

ولم يتقبل الإنجليز أنفسهم أبدًا بمزاج حماسى، ولطالما خجلوا فى عهود لاحقة من البيوريتانيين، فقد كتب كنينجهام فى عمله الكلاسيكى عن تاريخ الاقتصاد الإنجليزى: «إن الميل العام عند البيوريتانية، هو إغفال الأخلاقيات المسيحية، وإحلال العادات اليهودية مكانها، فقد أحل البيوريتانيون تعاليم يهودية بدلاً من التعاليم الإلهية للضمير المسيحى. . . بالتالى حدثت نكسة إلى أخلاقيات اجتماعية أدنى تنعكس فى الداخل والخارج». ولكن كنينجهام لا يتطرق إلى عقد مقارنة بين الأخلاقيات البيوريتانية المتمثلة فى مذبحة الأيرلنديين فى دروجيدا والأخلاقيات المتمثلة فى إعدام هنرى الثامن

لفيشر ومور، أو مذبحة «الهوجونوت» فى عيد «القديس بارثلوميو – St. Bartholomew's Eve»(*) أو فى فظائع لجنة التفتيش، والتى تمت كلها استجابة للضمير المسيحى المقدس!

بالتأكيد فإن خصائص اليهود القدماء الانتقامية التى اختار البيوريتانيون أدنى أخلاقيًا من «موعظة الجبل» كما هى أدنى من وصايا موسى العشر التى تلقاها على جبل سيناء. ولم يكن حظ الإسرائيليين فى شدتهم ورخائهم وتقلبهم فى الالتزام بوصايا جبل سيناء، بأفضل حالاً من حظ العالم المسيحى فى القدرة على الالتزام بتعاليم المسيح، وتكمن مشكلة المسيحية الأخلاقية الوحيدة فى عدم ممارسة المسيحيين ككل لأخلاقياتهم. **وبينما تمثل الوصايا العشر قانونًا ملموسًا يمكن للإنسان اتباعه إن حاول، فإن موعظة الجبل، تظل إلى وقتنا هذا قانونًا بعيدًا عن متناول المجتمع.**(**)

وبالرغم من عدم رفض البيوريتانيين للعهد الجديد، فقد رفض

(*) فى منتصف ليلة ٢٤ أغسطس ١٥٧٢م، دق ناقوس كنيسة «سان جيرمان» فى باريس، ليبدأ الحرس الملكى وأشراف الكاثوليك وجماهيرهم فى ذبح البروتستانت الفرنسيين (الهوجونوت)، فكانت حصيلة المجزرة ألفين فى باريس وثمانية آلاف فى بقية فرنسا.

(**) يمثل هذه الأقوال وما تمثله، أصبحت أسس الحضارة الأمريكية يهودية / مسيحية، قولاً وفعلاً، بل لا نغالى إن قلنا يهودية قبل المسيحية، كما يقولون ويكتبون دائمًا Judo / Christian.

بعض متطرفيهم قدسية يسوع، وأحرق بعضهم من جراء هذا الرفض. وقد طالب حتى المعتدلون منهم الملك چيمس الأول كجزء من طلبهم الألفى ألا يطلب منهم فى الكنائس الانحناء عند ذكر اسم المسيح. وفى محاولة منهم لتطهير الدين من الخلل والمسوح والقرابين المقدسة والسجدات وما شابه، أعاد المتطرفون الاعتقاد فى عدم إمكانية المشاركة فى قدسية الله، وهو نفس اعتقاد اليهود فى وحدانية الله. «. . . إسرائيل، إلهكم واحد» ولا يجب الجدل عن الإخلاص فى الدين. ولم يجد الاستقلاليون فى سعيهم إلى نموذج قديم سوى أبطال قلائل. ولم يتعاطف معهم من مؤرخى الإنجليز سوء كارليل الذى كتب عنهم: «آخر بطولاتنا. . واللمحة الأخيرة من رجال الرب فى هذا البلد، فقد حل الرياء والمظهر محل العقيدة والصدق، لقد تنحى عهد الرب القديم والذى طالما حارب كل الرجال الحقيقيين لأجله، على اختلاف لهجاتهم ومذاهبهم، ليفسح المجال لعهد غياب الرب والمسمى بالشيطان».

ولكن كارليل كان متفردًا عاطفيًّا بلا تعقل، مثله فى ذلك مثل البيوريتانيين. لقد قدم ماثيو أرنولد رجل التعقل الجميل، تقييمًا أكثر صدقًا لأثر البيوريتانيين على العقل الإنجليزى، فقد كتب فى كتابه «الثقافة والفوضى» عن البيوريتانية أنها إحياء للروح اليهودية فى مقابل الروح الهيلينية التى حرّكت فترة عصر ما قبل النهضة. وكان ميل أرنولد الشخصى للهيلينية، والتى عرّفها بأنها «التفكير الصحيح» مقابل

العبرانية التى عرفها «عمل الشىء الصحيح تبعًا للقانون». فقد كانت البيوريتانية نتيجة لغياب النسيج الأخلاقى الذى صاحب عصر النهضة. وفي خضم توقهم لطاعة قانون، وهو ميل أصيل فى الحياة. وترك ذلك أثرًا أبديًا على الأمة. **ويعزو أرنولد جزءاً كبيراً من قوة بنى جنسه إلى «احتفاظهم بثقة وتماسك وتجمع العبرانيين. وقد ظهر هذا فى البيوريتانية مما شكل جزءاً كبيراً من تاريخنا على مر قرنين».**

استقرار اللاجئين البيوريتانيين فى هولندا فى عام ١٦٠٤م علامة بارزة فى تاريخ إعادة بناء إسرائيل، حيث كتب مؤرخهم الأول دانيال نيل: **«من الأفضل أن نذهب لنعيش فى بلد الرب أينما كانت على أن نتلكأ وسط ما يشبه عبوديتنا لدى المصريين».**

لما لجأ لهولندا فى القرن السابق اليهود الفارون من محاكم تفتيش إسبانيا والبرتغال، وصار لهم مجتمع مزدهر فى أمستردام يضم العديد من التجار الأقوياء. كانوا يقومون بأدوار مهمة فى التجارة مع المستعمرات الهولندية وفى التجارة الأوروبية مع المشرق. وفى هولندا، تعرف النازحون البيوريتانيون الذين اقتفوا آثار العبريين على اليهود المعاصرين، وتعرف اليهود على تلك الطائفة المسيحية التى تنادى بحرية الدين للجميع، بما فى ذلك اليهود (الذين طالما كانوا مضطهدين، وآمن البيوريتانيون بالتسامح، ثم تحولوا إلى رؤية سيئاته حين جاءتهم السلطة!).

وفى الواقع لم يكن هناك فرق كبير بين الاستقلاليين واليهود بالنسبة للعقيدة، ولكن ليس بالنسبة للطقوس المتبعة. وكان كلا الطرفين يعرف ذلك جيداً. وقد ظهرت طوائف من بين متطرفى البيوريتانيين ادعوا أنهم يهود إيماناً وتطبيقاً. وذهب بعض الأفراد المتحمسين إلى حد السفر للدراسة على يد أحبار دوليين ولتعريف أنفسهم بأدبيات وقوانين التلمود. وفى عام ١٦٤٧م خصص البرلمان خمسمائة جنيه لشراء كتب «ذات قيمة عظيمة جداً» أُحضرت من إيطاليا، كانت تخص رباى هناك، وفى إطار الاتجاه نحو العبرانية جعل البيوريتانيون اليهود ضمن من تجب حمايتهم تحت لواء التسامح. وضح ذلك أحد - منفيى - هولندا، ليوناردو بوشر فى كتابه «السلام الدينى أو طلب حرية الضمير» والذى ظهر فى عام ١٦٤٤م، وهو أول كتاب ينادى بحرية العبادة. كتب روجر ويليامز فى مخطوطه الأكثر شهرة «الاضطهاد فى سبيل الضمير» عام ١٦٤٤م فى نص مبادئه: «إنها إرادة ومشيئة الرب منذ قدوم ابنه يسوع المسيح، السماح بأعتى الوثنية واليهودية والتركية(*)، أو المعادية للمسيح لكل الناس وكل البلاد والدول.. ولا يتطلب الرب أن تفرض وحدة الدين فى أى بلد مدنى.. فقد تزدهر الديانة المسيحية فى بلد بالرغم من السماح أو عدمه، وبرغم اختلاف الضمير سواء كان يهودياً أم لا».

(*) يقصد الإسلام.

كتب ويليامز من عالم جديد شجاع عبر الأطلنطى. ففى انجلترا، فقط: «المتوحشون، المنشقون، المتعصبون»، والذين أطلق عليهم الأسقف هال «الإسكافيون، الترزية، صناع اللباد، وأمثالهم من الحثالة» اقتنعوا بأن تلك الأفكار تصلح للممارسة الفعلية.

وفى عام ١٦٤٨م، خلال شهور الزخم بعد عيد الاستقلال والافتخار الكاسح به، صوت «مجلس الميكانيكيين» على قرار لصالح «التسامح مع كل الأديان، بدون استثناء الأتراك «المسلمين» ولا البابويين «الكاثوليك»، ولا «اليهود». ولكن أخلت المثالية الطريق للسياسة العملية. وضاع طلب الحرية الدينية فى خضم حرب كرومويل ضد متطرفى البيوريتانيين. وفى خوفه من تشجيع التطرف المجنون للطوائف التى تنادى بخلعه لإفساح الطريق للألفية الجديدة ومملكة القديسين، فلم يقو على تطبيق تشاريع التسامح الشجاعة: **«أفضل أن يسمح بالمحمدية فى وسطنا على أن يضطهد أحد أبناء الرب».**

وفى هذه الأثناء خرج مفكرو البيوريتانيين بخطة دعوة اليهود مجدداً إلى انجلترا لتحويلهم إلى المسيحية تحت الرعاية الملائمة بأسرع ما يمكن. ماذا يمكن أن يكون برهانًا دامغًا للعالم أجمع على عدالة دوافع البيوريتانيين من إنجاز هذا الهدف الذى طال تأجيله؟ وقد قال روجر ويليامز بين ما قاله فى دفاعه ضد دولة دينية: «يجب التخلى عن أحلامنا ورغبتنا فى تحول اليهود إلى المسيحية». وكان من بين

النظريات المقبـولة استعـادة أرض إسرائيل بعـد التحول (من اليـهودية للمسيحية). وظهرت رسالة فى عام ١٦٢١م تسـمى بـ «أعظم استعادة فى العالـم» أو «دعوة اليهـود ودول ممالك العالم إلـى الإيمان بالمسيح». وكان مـؤلف الرسالة هو السـير هنرى فنـش وهو ضابط قـانونى من جنود الملك، وقد تنبـأ بعودة السيادة المؤقـتة لليهود فى المسـتقبل القريب، وبأن يـؤسسوا إمبراطـورية عالمية. ويبقى هذا هو أول مـشروع لإعادة بناء إسرائيل. وتـبعًا لمعـاصر فـينش (توم فولر) فـقد فـسر الكتاب على أنه يشـير إلى وجـوب خـضوع كل الأمـراء المسـيحـيـين بولاياتهم للإمـبراطورية المـؤقتـة للدولة اليـهودية. وبسـبب حمـاسة جيـمس الأول للدفـاع الملكى، فلا عـجب من اعتقال فينش ومحاكمته بتهمة الخيانة العظمى، وعدم إطلاق سراحه إلا بعد إنكاره أى نصوص تنتقص من سيادة الملك.

ولا يمكن تحـديد مدى تأثيـر الكتاب، إن كـان له أثر. ويمكن أن يكون منع الكتاب قـد حد من تأثير أفكاره، وعـلى النقيض يمكن أن يكون قمع الكتاب ومـحاكمة الكاتب قـد أثارا الاهتمام به. وعلى أى حـال لم تمت الفكرة. وفى الجـيل التـالى زاد تعداد وغـضب وتأثيـر البيوريتانيين المستقلين أو الجناح اليسارى، والذى - فى حقيقة الأمر - توصل إلى القوة والسيطرة تحت قيادة كـرومويل. وكلما زادت الحركة انتشر الغـزو العبرانى. وكلما زادت ثقـتهم بأنفسهم وشـعورهم بأنهم الشعب المختار لعمل مشيئـة الرب بين الغوغاء، كلما زادت عبرانيتهم فى الحديث والعادات. وعـمت موجة من تسميات العـهد القديم على

أطفال انجلترا. وتنحى جاى ومايلز وبيتر وچون أمام أخنوخ وعاموس وعباديا وچوب وشيث وإيلى. وتنحت مارى ومود ومارجريت وآن أمام سارة وربيكا وديبورا وإستر. وتذكر السجلات أسرة من هارڤارد شاير تسمى أبناءها الستة بإسحاق وإيخابود وسارة وبرنابا وناثانيال وإسرائيل. نُقِّب العهد القديم عن ظهر قلب، وبرز أبطاله للحياة وسخر الكاتب كاولى من هذه الموضة الغريبة، فجعل أحد أبطال مسرحياته الذى تحول إلى البيوريتانية واسمه كاتر يقول: «لا يجب أن ينادينى أحد بكاتر بعد اليوم وإنما بأبيدينجو. فقد جاءتنى نبوءة بذلك من خلال ثقب الباب». وانتشرت خاصة أسماء الأشرار كنوع من تعذيب الذات. فتسمى الأطفال باسم «تامار» التى اغتصبها أخوها، و«جاعل» الذى دق المسمار فى رأس سيسرا وهو ينام فى خيمتها، و«چوب» رجل الأحزان.

ولم يقف الحماس للعهد القديم عند التعميد، فقد صارت دراسات الكتاب المقدس وتفاسيره هى النشاط الفكرى الرئيسى للعصر، وصارت العبرية إحدى اللغات المقدسة الثلاث اللازمة للدراسة الدينية، التى صارت أساسية فى الجامعات. **وطالب قانون فى ١٦٤٤م المرشحين للوزارة باجتياز اختبار فى قراءة نصوص العهد القديم باللغة العبرية واليونانية.** وغزت اللغة العبرية حتى مدارس النحو، فتسخر مسرحية معاصرة من ناظرة مدرسة فى ذلك الوقت تدرس التطريز باللغة الكلدانية وتعطى نماذج عبرانية. وقد بدأ ميلتون دراسته للعبرية

منـذ أيام الطفولة بالمدرسـة، ويوصى بتدريسـها لطلبة مـدارس النحـو فى مقالته عن التعليم لكى تقرأ نصوص العهد القديم بلغتها الأصلية. ويقول چـون أوبـرى عن مـيلتون: إنه بعد أن أصيب بالعـمى، جعل رجلاً يقرأ له بصـوت مسموع، ومن أول ما جعله يقـرأه له كان العهد القديم بالعبرية. . ليتأمل.

وكان الباحث ماثيو پول يستيقظ فى الثالثة أو الرابعة فجراً، ويأكل بيضة نيئة، ثم يستمر فى الدراسـة حتى المغرب، حين كان يعد مؤلفه الضخم عن العهـد القديم، الذى حين نشر ملأ خمـسة مجلدات من خمسة آلاف صفحة ذات عمودين من القطع الكبير. واقتضاءً بمترجمى الملك چيمس، غاص باحثو الجـيل التالى بعمق فى اللغات والفولكلور القديم، وصاروا يعدون ككلاب الصيد فى أثر رائحة الفريسة وأنوفهم فى الأرض عبر حقـول النصوص السيريانية والكلدانيـة والعربية. وقد خرج الأسقف آشر من دراسته للأعمال القديمة بخريطة لتاريخ وأزمان العالم. واقتفى چون سلدون كل معبـود ذكر فى العهد القديم ليصدر كتاباً شـاملاً عن المعتقدات الوثنية. ونشـر إدوارد ليه فى عام ١٦٤٦م أكمل قاموس عبرى حتى الآن الـ «Critica Sacra»، وفى الجيل التالى ظهر الكتـاب المقدس المتعدد اللغـات، وهو مؤلف ضخم اشتـرك فيه عدد كبير من المؤلفين، واستخـدم تسع لغات قديمة من بينها السامرية والإثيوبية والفارسية.

وكان أحد مؤلفيه إدوارد پوكوك الذى كان قسيس شركة المشرق فى حلب بين عامى ١٦٣٠م و١٦٣٥م. ونتيجة لتعليمه العالى حظى پوكوك بالتعيين كأستاذ للغة العبرية وكأول أستاذ كرسى للغة العربية فى أكسفورد. وكان تاريخه عن العالم العربى، ونسخته فى تعليق «الميمون» على «الميشنا» هى أول كتب تطبعها أكسفورد بالعربية والعبرية. وتعد شجرة أرز وشجرة تين زرعهما پوكوك من شتلات أحضرها معه من سوريا كبقايا حية من عهد سليمان؛ حيث إنهما ما زالتا مزهرتين فى حديقة كنيسة المسيح بأكسفورد بعد وفاته بثلاثمائة عام.

ولم يكن كل هذا التحصيل العلمى حكرًا على الباحثين، وإنما انتشر بين الناس من خلال الخلاصات والرسائل والفهارس والمحاضرات، وخليط من عظات رجال الدين واعظى العامة أو أى من حرّكت فيه هذه الروح شيئًا لم يسمع به من قبل. وحفظ الصغار والكبار نصوصًا طويلة من الكتاب المقدس عن ظهر قلب وعاشوا حياتهم اليومية تبعًا لتعاليمه. وأتيح للجميع، ولم يكن بحاجة لتدخل القساوسة لترجمة المعانى، وشكَّلَ الحياة الأخلاقية.

ومن المعروف للجميع ترنيم الجنود لمزامير داود وحملهم للكتاب المقدس معهم. وفى كتابه عن جيش كرومويل، كتب سير تشارلز فيرث عن مواعظ جيدة صباحًا ومساء تحت سقف السماء وعلى نقر الطبول بدلاً من

الأجراس، وعن «صوت الترانيم والصلوات وقراءات الكتاب المقدس المتصاعد من الخيام». وفى مارستون مور كاد مجموع من الملكيين المتخبطين الفارين يقعون فى أيدى الجنود، لولا سماعهم لأصوات تسابيح الجنود فاستداروا فارين ثانية. وكان القساوسة يشكون من كثرة وعظ الضباط والجنود، خاصة عندما كان الضباط يعظون من فوق صهوات الجياد، ولكن كرومويل رد عليهم: «إن لم آذن لهم بأن يعظوا، فلن يحاربوا». وحين خطط كرومويل وجنوده للمعركة استشاروا نصوص الكتاب المقدس كمرشد وكدليل. وكان مجلس الحرب يتضمن الصلوات وقراءة الكتاب المقدس وكانت صيحة الحرب: «الله يا رب الجيوش»، وكان الاحتفال بالنصر بالترانيم وبالثناء على الله فى أرض المعركة. وكما نعرف من خطب كرومويل، فقد كان هو شخصيًا كثير الاستعانة بسفر المزامير وسفر الأنبياء فى خطبه. وكتب عنه عن سكوت: «كانت له أحاديث رائعة فيما يخص العقائد»، لم يبالغ سكوت فى شخصية كرومويل فى روايته «وودستوك»، ويتحدث كرومويل عن نفسه كرجل دعى لعمل عظيم فى إسرائيل وعن الستيوارتيين على أنهم من قض مضجع إسرائيل لخمسين عامًا.

ويتحدث عن «المجلس اليهودى الأعلى» فى انجلترا على أنه «إسرائيلنا البريطانية» و«صهيوننا الإنجليزى»، وأمر جنوده بالزحف فى صمت «كما زحف جدعون على المديانيين». سماه جنوده ابن جيس، وشبهوه دائمًا بـ «داود» من ناحية الإيمان والقوة والحكمة. ومن الناحية الأخرى أطلق

جنوده على الملكيين «عبدة البعل»، وكانوا يهتفون فى قتالهم «اهلكى يا بابل».

ولا تعد الصورة الحية التى رسمها سكوت عن ذلك العهد فى «وودستوك» دليلاً معاصراً، ولكن بها كثير من المصداقية، فإن ألفة البيوريتانيين تجاه الأسماء وتواريخ الحياة الخاصة بالعهد القديم قد جعلتهم على دراية بتاريخ وعادات اليهود الذين تمسكوا بالأمل الدائم فى: العام القادم فى أورشليم. وساد شعور بين اليهود بدنو الحين. **وكان شائعًا فى انجلترا والبلاد البروتستانتية الأخرى أن عام ١٦٦٦م هو عام حاسم فى مصير اليهود، إما بتحولهم للمسيحية أو باستعادتهم لمملكتهم المؤقتة إيذانًا بقرب سقوط البابا.**

وانتقل هذا الحماس إلى اليهود، مما يفسر انخداعهم بالمسيح المزيف «ساباتى زيفى – Sabbati Zevi» الذى اختار عام ١٦٦٦م لبث دعواه المزيفة حال زحفهم الأبله نحو الشرق. وسابقًا فى ١٦٥٠م، «عقد يهود أوروبا مجلسًا فى المجر لمناقشة القدوم المتوقع للمسيح. وكتب المراقب الإنجليزى صموئيل برت، الذى كان حاضراً فى المجلس، تقريراً بصدد ما تم فى المجلس باعتباره تمهيداً لتحولهم للمسيحية. حتى إن البابا نفسه قد تحمس وأرسل لهم ستة قساوسة كاثوليك للمشورة بخصوص كون المسيح المنتظر قد جاء أم لا، ولكن المجلس لم يعتد بذلك. ولم يصل اليهود لأى استنتاج فى ختام المجلس، وتفرقوا بعد ثمانية أيام دون أن يتفقوا سوى على العودة للقاء بعد ثلاثة

أعوام. وركز برت فى خطابه للعامة على كـون روما هى العدو الأكبر لتحول اليهــود إلى المسيحية لكونها ذات كنيـسة وثنية ذات أصنام وآلهة نسائية، وأن الخــلاص المنتظر والتحول المنشود أقـرب للحدوث على يد البروتستانتية.

واستقر آل كارترايت فى أمستـردام كخطوة عملية تجاه هذا الهدف، ولكن التماسهم لإلغاء القرار البرلمانى بنفى اليهود من انجلترا الذى قُدم فى يناير ١٦٤٩م، ضل طريقه فى خضم أحداث إعدام الملك الذى تم فى ذلك الشهـر، ولكن فى المرحلة الجديدة التى وصلت لهـا انجلترا، بدأت عوامل جديدة فى دفع عـجلة طلب آل كارترايت، ولأول مرة، بدأ يهـودى فى الظهـور على سطح الأحـداث وبدأت جـهـوده تلائم الظروف المحيطة، وفُتحت انجلترا لليهود مرة ثانية.

تحت اقتناع بأن عليـه، مهمة التـعجيل بقدوم المسـيح، أو لمسة من المسيح، نشـر الرباى العليم «ماناسح بن إسـرائيل» فى أمستـردام عام ١٦٥٢م كتابًا مهمًـا بعنوان: «أمل إسرائيل». ما دار فى فكر ماناسح، هو أن يصل اليهود إلى انجلترا حتى يكتمل شتاتهم فى العالم، قبل أن يبدأ تجمعهم فى إسرائيل. وكـما شرح فى خطاب لاحق، فقد كشف سفر التثنية، الإصحاح ٢٨ : ٦٤ : **ويشتتكم الرب بين جميع الأمم من أقصى الأرض إلى أقصاها.** «ولقد اقتنعـت أن أقصى الأرض قد يكون هو هذه الجزيرة» أى انجلترا!

وقد ألهم الرحالة اليـهودى أنتونيو دى مونترينوس - بقـصصه عن

القبائل الهندية فى جزر الهند الغربية، وممارساتهم للطقوس اليهودية مما يدل على أنهم عبرانيون، برغم لونهم الذى غيرته الشمس - التوقعات المسيحانية لدى ماناسح، والذى قابله عام ١٦٤٤م.

واستنتج مونترينوس أن أولئك الهنود هم قبيلة رأوبين، إحدى القبائل اليهودية العشر المفقودة، وكان مبشرو المسيحية الإسپان إلى أمريكا الجنوبية يرددون بأن الهنود الحمر هم القبائل اليهودية العشر المفقودة والذين عبروا آسيا غربًا إلى الصين ثم إلى أمريكا (بينما يؤيد علماء الإنسانيات نظرية أن الهنود الحمر هم الميكادو، أى الجيش المغولى الذى عبر مضيق بارنج). وبناءً على طلب المجمع اليهودى الهولندى وقع مونترينوس قسمًا على صحة روايته.

وانتشرت هذه الرواية بسرعة بين الهولنديين الپيوريتانيين، وتحمست لها طائفة الألفيين الذين كانوا ينتظرون مملكة القديسين، وتبعًا لتفسيرهم لنبوءة الكتاب المقدس، فيجب أن تشمل العودة من المنفى القبائل العشر المفقودة التى اختفت فى القرن العاشر قبل الميلاد. فعند التقائهم مع بنى يهوذا، كما كان الحال أيام داود وسليمان، يستطيع المسيح بن داود الظهور على الأرض.

وتمسك ماناسح باكتشاف مونترينوس كدليل على كمال التشتت بين كل الشعوب، وكدليل على قرب اجتماع القبائل الاثنتى عشرة تحت إمرة المسيح المنتظر. فقد نص كتاب دانيال على أن «تنقضى هذه

العجائب بعد ثلاث سنوات ونصف، حين يتم تشتيت قوة الشعب المقدس». وكان هذا هو موضوع كتاب ماناسح. ولكن كانت لا تزال توجد بقعة فى الأرض خالية من اليهود. ومن خلال حواره مع أصدقائه البيوريتانيين، بدأ ماناسح يدعو لعودة اليهود لأرض انجلترا. وأعاد كتابه العبرى باللاتينية وأهداه إلى البرلمان الإنجليزى، وطلب عونهم ونواياهم الحسنة كى يتم إنجاز جميع الأشياء الطيبة التى وعد بها الرب .. **وحتى يعود السلام الموعود للعالم على يد المسيح المنتظر بعد عودة شعب إسرائيل إلى أرضه، معززين بآمالهم فى اقتراب الألفية المجيدة.** وقد قام تلاميذ ماناسح بترجمة كتابه إلى الإنجليزية، حيث نفدت طبعتان منه سريعًا؛ إذ إنه جاء فى الوقت المناسب. فقد كان كرومويل فى حرب مع البرتغال، وهى أولى الحروب التجارية من أجل استعادة سيادة بريطانيا البحرية لإصلاح جسور التجارة مع المستعمرات. وقد أفقدت الحرب الأهلية بريطانيا صدارتها التجارية. وكانت طبقة رجال الأعمال والتجار، وأغلبهم من البيوريتانيين، يغارون من الهولنديين الذين استغلوا الفرصة واقتنصوا مركز الصدارة فى التجارة مع المشرق والشرق الأقصى والمستعمرات والأمريكتين. ويساعد على نجاح الهولنديين التجار اليهود، ملاك المراكب وسماسرة أمستردام، الذين جلبوا الفرص من خلال علاقاتهم بجنوب أمريكا وبالمشرق. ولم يغب ذلك عن كرومويل، فاستغل عائلات يهود الأندلس (Marranos) المقيمين بانجلترا.

وكان يهود الأندلس، أو المارانو، لاجئين فارين من محاكم التفتيش

فى إسبانيا والبرتغال، حيث كانوا يظهرون الكاثوليكية علنًا ويمارسون اليهودية سرًا. وقد نزحوا عن إسبانيا إلى انجلترا فى عام ١٤٩٢م(*). وكانوا نشيطين فى أيام كرومويل، وكان أبرزهما «سيمون دوكاسيرس- Simon de Caceres»، و«أنطونيو دو كارفاجال- Antonio de Carvajal» وكان الأخير مورد حبوب لكرومويل فى الحرب الأهلية، وتحكم فى استيراد السبائك الذهبية من مصادر إسبانية، وكانت سفنه معفاة من الحصار فى وقت حرب انجلترا مع البرتغال، وكانت له تسهيلات لتجارته الخارجية. وقد لحقت لعنة أموال السفن بكرومويل كسلفه تشارلز الأول، واحتاج لرأس المال فأمل فى الحصول عليه من اليهود. وأراد أن يستخدمهم أيضًا كجواسيس عبر أوروبا، ليمدوه بمعلومات عن أساليب منافسيه التجارية وعن المؤمرات الملكية فى الخارج نظرًا لعلاقاتهم المنتشرة.

وبدأ الاتصال الرسمى مع ماناسح فى عام ١٦٥٠م بعد انتشار كتابه مباشرة. وأُرسلت بعثة إلى هولندا لعقد تحالف مع الهولنديين برئاسة أوليڤرسانت چون وكُلفت البعثة بالتفاوض الجانبى مع ماناسح وعقد سانت چون عدة حوارات مع الحبر، قدم على أثرها ماناسح طلبًا رسميًا لمجلس الدولة لإعادة السماح لليهود بدخول انجلترا.

(*) إثر سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس، وقد نزحوا أيضًا إلى تركيا، مقر الخلافة الإسلامية - المترجم.

وتسارعت الأحداث نحـو ذروتها. ورفضت هولندا المغرورة الغبية الاتحاد مع جمهورية بريطانيـا المبتدئة. وبناءً على ذلك، عملت بريطانيا بمبدأ (إن لم تستطع الانضـمام إليهم فاهزمهم) فأصـدرت فوراً القانون البحرى الذى يمنع السفن الأجنبية من الاتجار مع انجلترا ومستعمراتها. وأصاب هذا الهـولنديين فى معيـشتهم، وبدأت الحرب مع انجلتـرا بعد ذلك بعام. ولتوقـعه لذلك، أرسل كرومويل إلى مـاناسح بن إسرائيل جواز سـفر داعيًا إياه للـدفاع عن قضيـته بنفسـه فى نفس يوم صدور القانون البحـرى. وكما أشارت «سـيسيل روث - Cecil Roth»، فإن هذه الصدفـة تستحق التـدوين. وكان كـرومويل متـحمسًا لنقل تجار أمستردام اليهود إلى لندن، كإجراء سيفيد انجلترا فى سباقها مع هولندا.

ولكن قبل أن يأتى ماناسح، اندلعت الحـرب الهولندية الإنجليزية، وفى أثناء اندلاعها، لم يُتخذ أى إجراء حيال اقتراحه. ولو كان يمكن تنفيذه فى هذا الوقت لكانت النتائج مذهلة؛ حيث إنه فى عام ١٦٥٣م ومع دعـوة البرلمان الإنجليـزى، أعظم برلمان فى العالـم الحديث كـما وصفه كارليل، بلغت العبرانية ذروتها. واجتمع فى يوليو عام ١٦٥٣م بهدف إعادة تنشئـة انجلترا لوضعها على مسار الممارسـة الفعلية لشرائع موسى ولتـعاليم المسيح، وفى مـقابل ذلك كـان الرجل الإنجليزى فى البلاط وفى المحاكم وفى الأسواق على استـعداد لحب جاره كما يحب نفسه باختـياره، ويقول اللورد مـورلى فى قصة حياة كـرومويل: إنها كانت محاولة «لتـأسيس مجتمع مدنى بناءً على التعـاليم الحرفية لنص

الكتاب المقـدس. . وهذا يفسر السيـاسة المستمدة من الكـتاب المقدس التى ميزت ذلك الزمان».

وكان كـروموبل ملهمًـا بهذا المزاج، وفى بداية خطابه الافتـتاحى للبرلمان المخـتار، كان يبدو مـأخوذًا برؤياه لنفسـه أنه نبى الله «إيليا - Elijah» يعيـد شعب الله إليـه. وقال للأعضـاء الذين كانوا جـالسين مشغولين بإحساسهم بالرسالة السامية: «بالحق، أنتم مدعوون من قبل الرب كما كان يهوذا مدعـواً للحكم مع الرب ولأجله. أنتم على عتبة الوعود والنبـوءات»، ثم تلا مـن المزمـور الثامـن والستين: **«يقولُ السيد: سـأرجع أعداءكم من باشـان، سأرجـعهم من أعـماق البـحر فـتغـمسـون أرجلكم فى دمهم وتأخـذ ألسنة الكلاب نصيبهـا من الأعداء» ٢٢ - ٢٣** . ويستمر فى بلاغته مستعينًا بسفر المزامير وسفر الأنبياء، ويؤكد لسامعيه أن النصر الموعود فى الترنيـمة الثامنة والستين فى سفـر المزامير لشعب الله القديم سيتحقق على يد الكومون ويلث، شعب الله على الأرض.

ولو أن ماناسح كان موجودًا لتقديم عرضه آنذاك، من كان يدرى ما كان يـمكن أن يحدث؟ ولكن كل ذلك انتـهى فى فـترة سـتة أشـهر، ورفضت جـهودهم المخلصة المجـردة لتطبيق نص الكتـاب المقدس على أنهـا «تهويد» للقـانون الإنجليزى، وحـيث إنها تصـادمت مع حـقوق الملكية، فـقد كانت هزيمتهـا وجوبية. وحين وُضع كـروموبل فى بؤرة الضوء، اضطر لإنكار كل هذا، وصارت مادة للسخرية فى التاريخ تحت اسم شهرة أحد الأعضاء پرايز جود باريبون (Praisegod Barebone).

وبالرغم من أن ذروة البيوريتانية المستمدة من الكتاب المقدس قد ولت، لم تمت فكرة استرجاع اليهود. وانتهت الحرب الهولندية، ولكن الحرب الإسپانية بسبب التنافس التجارى قد لاحت فى الأفق. وظل كرومويل يضغط لأجل قرار بشأن إعادة اليهود لبريطانيا، والذين ظلت علاقاتهم التجارية وثيقة بإسپانيا والبرتغال. وفى عام ١٦٥٤م بعث ماناسح بشقيق زوجته (أو زوج أخته)، داڤيد دور ميدو، وابنه، لتقديم طلبه لمجلس الدولة. وبسبب معارضة شعبه الذى التزم الموقف اليهودى المستقيم، رفضوا بشدة أى محاولة بشرية لتعجيل قدوم المسيح، اضطر للمهادنة لفترة، ولكن حين رفض المجلس طلب دور ميدو برغم حث كرومويل لهم، دعا كرومويل ماناسح للقدوم بنفسه، وقبل الأخير وحضر بصحبة ثلاثة أحبار من زملائه بدفاعات جديدة لصالح هدفه، وكتبوا طلبهم فى خطاب متواضع إلى اللورد حامينا وأعطى ثقله كـ «رباى» للمنطق القائل بتشتت اليهود فى جميع بقاع الأرض باستثناء هذه الجزيرة المهمة القوية، وأنه قبل حضور المسيح لاستعادة شعبه، يجب أن يكتمل شتات اليهود إلى بريطانيا!

ثم انتقل إلى «الربح الذى هو أقوى الدوافع على الإطلاق» وأشار إلى كم يمكن أن تكون أهمية اليهود كقنوات للتأثير فى التجارة أمام هولندا وإسپانيا والبرتغال، وتكلم عن الحب الذى يكنه اليهود للكومون ويلث بسبب كونه أكثر تسامحًا من الممالك الأخرى. ورد على الاتهامات التقليدية، بأن المسيحيين أنفسهم قد أُتهموا بممارسة طقوس الدم من

قبل أباطرة الرومان، وأشار إلى الحقيقة غير المريحة، وهى «ميل الناس لكره واحتقار عثر الحظ» وفى النهاية طلب حماية الحكومة، ومعبدًا يهوديًا علنيًا وحرًا، ومقابر يهودية، وحرية التجارة، وسيادة اليهود القضائية على أنفسهم، مع اللجوء فى النهاية للمحاكم الإنجليزية، وإلغاء أى قوانين تمنع أيًا من هذه المطالب.

وأثار طبع هذه الخطاب دوامة من الجدل أغرقت فيها العيوب المزايا، وأثيرت التهم القديمة مع تهم جديدة . . . بما فيها أن كرومويل يهودى وأن اليهود سوف يشترون كنيسة القديس بولس ومكتبة بودليان. لقد كانوا جنسًا حقيرًا، دائمًا ما عاقبه الرب على شروره، وكان نفيهم عقابًا إلهيًا لهم على قتل المسيح (وسيطبق البريطانيون عليهم نفس العقوبة لقتل الملك تشارلز). ولو دعوا للعودة لانجلترا لشوهوا الدين المسيحى، وتسببوا فى البعد عن المبادئ والتعاليم المسيحية، وسوف يزيفون العملة، ويزيدون البطالة، ويدمرون التجار الإنجليز، والتجارة الخارجية. أما أنصارهم فقد كانوا يقولون بأن اليهود أنبل شعوب العالم، وهم شعب الله المختار، وأن الأحبار كانوا مسئولين وحدهم عن صلب المسيح، ولم تكن مسئولية الشعب اليهودى بأكمله، وأن عودتهم إلى انجلترا ستبارك البلد، وأن الحرب الأهلية هى عقاب الرب لانجلترا لطردها شعبه، وأن استعادتهم ستهدأ من غضبه وتعيد السلام، وأن التجار اليهود سيخفضون الأسعار ويزيدون التجارة والرخاء، حيث كان معروفًا أن البلاد التى تحسن إلى اليهود تزدهر وتنعم بالثراء والقوة.

وبالرغم من ذلك فـقـد اعـتمـد الأنصـار على أضـعف نقطة فى دفاعهم: وهى أنه لن يتم تحـول اليهود إلى المسيحيـة إلا بعد عودتهم إلى انجلترا. وقاد ويليام براين الخصوم، وسخر من فكرة تحول اليهود، وقد كان محقًا فى هذه النقطة، فـقد كانت فكرة تحول اليهود - والتى سـوف تعاود الظهـور فى القـرن التاسع عـشر - غـيـر منطقيـة على الإطلاق. ولكنها ويا للسخرية كانت أقوى الدوافع التى جعلت انجلترا تروج لفكرة استرجـاع إسرائيل. وأيًا كان ما حدث، فـفى العاشر من ديسمـبر عام ١٦٥٥م جمع كـرومويل لجنة من القضـاة ورجال الدين والتجار للنـظر فى طلب ماناسح. وعلى مدى أربعة عـشر يومًا، ظل أعضاء اللجنة منقـسمين بين معارض ومؤيد. ولم يتـفقوا سوى على أنه لا يوجـد سبب قـانونى يمنع دخـول اليهـود إلى انجلترا. ويعـود الفضـل فى ذلك إلى القـاضـى جلين والقاضى ستـيل اللذين بينا هذا الرأى، أما فيمـا يختص بشروط وشكل تواجد اليهود وإقامـتهم، فقد ظلوا غير متفقين. فكان رجال الدين، والذين كانوا يريدون عودة اليهود، يقـولون بأن الناس الطيـبيـن فى انجلترا كـانوا يصـدقون فـى عودة المسـيح، ويصلون من أجلهـا أكثـر من أى شعب آخـر، وأنه يجب السمـاح لليـهود بالدخول لأجل تحقـيق ظهور المسيح أو التحـول، وأنه يجب على انجلترا أن تكفر عن ذنوبها تجاه اليهود الذين هـم أقارب المسيحيين بالدم، وإن لم يكن بالروح والإيمان، وينحدرون من نفس الأب إبراهام.



وكان التجار ضد هذا الأمر بشدة، فقد نشر عملاء الهولنديين والإسپان إشاعات عن العواقب الوخيمة لدخول اليهود، والمتمثلة فى أن تجارة اليهود ستشرى الغرباء وتفقر الإنجليز. وقالوا إنه فيما يختص بالتحول، فإن الأحرى أن ما سيحدث هو تحول المسيحيين إلى اليهودية، وليس العكس، بفعل ميل الشباب الإنجليزى للدعوات الجديدة. وفى نهاية الأمر، لم يُتفق إلا على السماح بعودة دخول اليهود إلى الجلترا، ولكن بشروط مقيدة ماليّا وتجاريّا، مما جعل الأمر عديم الجدوى لكرومويل.

وفتح الباب على مصراعيه، وتبختر «الحامى» وتقزز ثانية من عجز ضعاف بنى الإنسان «ألم يكن من واجب كل مسيحى أن يستقبل اليهود فى الجلترا، البلد الوحيد الذى كانت المسيحية تعلم فيه بنقاء كامل؟!، ألم يكن على الإنجليز ألا يحرموا اليهود من النور تاركين إياهم لمعلمين زائفين بابويين ووثنيين؟ وأخرست هذه الحجة المعارض من رجال الدين. ثم صب سخطه على رجال المدينة وسخر من خوفهم من شعب وضيع، ومن خوفهم من أن يستبد تجار هذا الشعب الوضيع على أنبل وأرقى التجار، التجار الإنجليز. فخرست جميع الحجج». ولم أسمع فى حياتى من تكلم أفضل منه، هكذا قال أحد المراقبين.

ولكن أوليفر كرومويل كان قد ضاق ذرعًا، وصرف اللجنة المخجلة كما حل سلفًا البرلمان الطويل والبرلمان الصغير حين عجزوا عن تحقيق

أهدافه. وكان بالفعل قد حقق جزءاً مما أراد من خلال حكم القضاء، ولم يكن متلهفًا لدفع الأمر أكثر من ذلك حرصًا على عدم إثارة القلاقل. ويجمع الباحثون على أن أوليفر كان قد بيت النية على استكمال هدفه بشكل غير رسمى، ليسمح برجوع اليهود عن طريق المؤامرة، وأن هذا هو الانطباع السائد فى هذا الوقت. وكتب المؤرخ **جون افيلين أنه قد سمح لليهود بالدخول فى الرابع عشر من ديسمبر عام ١٦٥٥م بناءً على حكم القضاة بعدم وجود مانع قانونى.**

واستراح الجميع لترك هذا الموضوع الشائك دون اتخاذ قرار قاطع - باستثناء أوحد - فبالنسبة للماناسح الذى وضع كل مشاعره وتعليمه وقدراته الإقناعية فى تنفيذ الخطة، والذى كان مدفوعًا بكل اشتياق أجداده، وبدافع عاجل جديد وهو اضطهاد اليهود فى پولندا، لم تكن التسوية تعد نجاحًا مرضيًا على الإطلاق. وعاد إلى هولندا مسنًا ومفلسًا ومهزومًا، وبعد أقل من عام مات عن ثلاثة وخمسين عامًا، ربما بسبب كسر قلبه.

ولا تعد النتائج المباشرة لتواطؤ كرومويل جزءًا من قصتنا. ونتيجة لغياب الحل الحاسم لم يهاجر الكثير من اليهود إلى انجلترا. ولكن فى عام ١٦٥٦م، حين دخلت انجلترا حربها مع إسبانيا، تمكن المارانو من الخروج من تنكرهم الإسبانى وسُمح لهم برغم القلاقل المثارة حولهم

بإقامة معبد علانية، كما سُمح لهم ببعض الحقوق المحدودة كمواطنين إنجليز. وفى نفس العام الذى مات فيه ماناسح بأساه، سُمح لابن أخيه بأن يكون سمساراً فى التجارة الملكية. وفى الواقع فقد كانت تسوية كرومويل حلاً إنجليزيّا تقليديّا، غير منطقى ولكن يمكن إنجاحه، وكان حظّا سعيدًا لليهود حين اختفى الكومون ويلث. ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك قانون فى الكتب كى يلغيه تشارلز الثانى، فجعل الأمور تمضى بتعقل كما كانت، وتجاهل طلبات إعادة طرد اليهود، وبما أن كثيراً من العائلات اليهودية المتعاطفة والملكيين قد ساعدت البيوريتانيين فى المنفى، فقد رفض تشارلز وضع أية قيود على اليهود كسلفه وتواطأ مثل كرومويل، لاستغلال الوضع لصالحه. وتدريجيّا، وعلى مر مائتى عام، تزايد المجتمع اليهودى الشرقى، وبالرغم من وجود المعارضين أمثال پراينز ودميور، فقد تم التحرر الاجتماعى سلميّا شيئًا فشيئًا.

هذا الحرص من انجلترا البيوريتانية فى الاهتمام باستعادة إسرائيل، أصله دينى بلا جدال، كنتاج لسيطرة العهد القديم على العقل والإيمان الخاص بحكم منتصف القرن التاسع عشر، ولكن الدين لم يكن كافيًا، ولم يكن إخاء البريطانيين الروحى مع بنى إسرائيل وأفكارهم عن التسامح وآمالهم بعهد المسيح الجديد ستثمر، لولا تدخل السياسة والاقتصاد للتعجيل

بالأمور. وكـان دافع كرومويـل للاهتمام بعـرض ماناسح هو نفـسه الدافع الذى دعا لويد چورچ للاهتمام بعرض وايزمان بعـد عشرة أجيال، وتحديداً المساعدة التى يعتـقد كلاهما أن اليهود يمكن أن يقـدموها فى حالة الحرب. ومنذ وقت كـرومـويل، كان كل اهـتمـام بريطانى بفلسـطين فى المسـتقبل مدفوعًا بهدف الربح التجارى أو العـسكرى أو الاستعمارى، وبهدف دينى موروث من العهد القديم فى نفس الوقت. وفى غيـاب كليهما، كما حدث فى القـرن الثامن عـشـر حين كـان المناخ الديـنى بارداً بشكل ملحـوظ، لم يتحقق شيء.

***

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٢١٧٥/ ٢٠٠٤

الترقيم الدولى 977-09-1814-9 .I.S.B.N

مطابع آمـون

٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة - ج م ع
ت : ٧٩٤٤٥١٧ ـ ٧٩٤٤٣٥٦

بين يدى الكتاب

- جذب عاملان رئيسيان . طوال قرون التاريخ . الشعب البريطانى للأرض المقدسة : الكتاب المقدس والمصالح الإمبريالية فى السيطرة على الطريق إلى الهند و حديثا الحاجة لبترول الشرق الأوسط . جذب - كالمغناطيس - العاملان المذكوران - الكتاب المقدس والسيف - ما لا يعد ولا يحصى من الحجاج ، الصليبيين ، وبعثات التبشير والاستعمار ، والتجار، والمكتشفين لأرض العبرانيين القدماء .

- باربارا توخمان ،الحائزة على جائزة بوليتزر، تبين كيف تغلغل وتخلل ذلكما الدافعان فى وعى الشعب البريطانى، منذ أيام الحملات الصليبية وحتى اليوم .

- كتبت المؤلفة عن انتصار البريطانيين على الأتراك فى الحرب العالمية الأولى ، واللحظة المقدسة لدخول الجنرال اللنبى القدس ... بلفور إعلانه عا م ١٩١٧ م ، فأصبحت بريطانيا الرا... شعب الكتاب المقدس لأرضه .

- تصور باربارا توخمان . بمهارة . أن مشاكل الشرق الأ... بذورها لقديم الزمان .

تصميم الغلاف : نيفين صلاح

